محمد سلماوي

أوديبُ في الطائرة

رواية

أعمال محمد سلماوي

الصادرة عن دار الكرمة

أوديب في الطائرة - رواية

يومًا أو بعض يوم: مذكرات (١٩٤٥-١٩٨١)

العصف والريحان: مذكرات (١٩٨١-٢٠١٥)

الأمير الصغير - رواية من تأليف أنطوان دو سانت اكزوبيري
وترجمها عن الفرنسية محمد سلماوي

مسيو إبراهيم وزهور القرآن - رواية من تأليف إريك-إيمانويل شميت وترجمها عن الفرنسية محمد سلماوي

محمد سلماوي

أديب في الطائرة

رواية

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٤
حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٤
© محمد سلماوي ٢٠٢٤
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة
تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي.
نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

هذا عمل أدبي خيالي. جميع الأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث الواردة فيه هي من نسج خيال المؤلف، أو مستخدَمة بشكل فني خيالي، ويجب عدم تفسيرها على أنها حقيقية. وأي تشابه مع أحداث أو أماكن أو منظمات فعلية أو أشخاص، أحياء أو أموات، فهو من قبيل المصادفة.

سلماوي، محمد.
أوديب في الطائرة: رواية / محمد سلماوي ـ القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٤.
١٢٨ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: 9789778727302
١ـ القصص العربية.
أـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٣٠٦٥٦ / ٢٠٢٣

١ ٣ ٥ ٧ ٩ ١٠ ٨ ٦ ٤ ٢
تصميم الغلاف: أحمد فرج

إلى

حفيدي

عليّ سلماوي

م. س.

هبطت الطائرة في الموعد المحدد على أرض مطار السجن، وانتظر الجنرال ديتر رئيس أركان الجيوش خروج الملك أوديب من الطائرة، لكن باب الطائرة فُتح ولم يخرج منه أحد. مضت الدقائق طويلة قلقة، كان الحر شديدًا في طيبة، وانعكست أشعة شمس الظهيرة على أرض المطار الأسفلتية فزادت الجو سخونة. لم يكن لدى رئيس الأركان أمر بالصعود إلى الطائرة. كان الأمر الصادر إليه من القيادة العليا هو استقبال أوديب بالشكل اللائق لدى هبوطه من الطائرة، ثم اصطحابه إلى زنزانته بالسجن من دون وضع الأصفاد في يديه.

لكن أين أوديب؟ هل هو موجود بالفعل على متن الطائرة؟ ولماذا لم يخرج؟

بعد مرور أكثر من نصف ساعة نزل الحارس الشخصي الذي كان مُكلَّفًا بمصاحبة الملك في أثناء الرحلة، وتوجه مباشرة إلى حيث يقف رئيس الأركان وسط فريق حرس السجن ليُقدم له التحية العسكرية قائلًا: تمام يا أفندم! علامة على إتمام مهمته.

ثم واصل: وصل الملك أوديب يا أفندم.

سأله الجنرال متلهفًا: أين هو أوديب؟

رد الحارس: في الطائرة يا أفندم.

قال الجنرال: لماذا لم ينزل؟

فقال له الحارس آخر ما كان يتوقع سماعه: الملك يرفض النزول من الطائرة يا أفندم.

قال ديتر: لماذا؟

رد الحارس: الملك يرفض النزول من الطائرة يا أفندم.

لم تكن هناك جدوى من مناقشة الحارس الشخصي في قرار لم يكن مسؤولًا عنه.

قال له ديتر: لقد أتممت مهمتك أيها الجندي.

ثم أشار له بالانصراف.

اتصل رئيس الأركان من تلفونه المحمول بالقيادة العليا ليخبرها بالأمر، فجاءه الرد حاسمًا: يجب إيداع أوديب السجن فورًا تنفيذًا لنبوءة زيوس المقدسة التي نطقت باسمه بشكل لا لبس فيه، ثم إن أجهزة الإعلام المحلية والدولية أذاعت حكم النبوءة على الملأ، وأُعلن عن أن أوديب انتقل بمجرد صدور الحكم إلى السجن.

كان توجيه القيادة صارمًا لرئيس الأركان: هذه مهمتك فأتمها على الفور. افعل كل ما في استطاعتك، وما ليس في استطاعتك، ولا تعاود الاتصال بنا إلا لإخطارنا بأن أوديب قد دخل

زنزانته.

لم يستغرق ديتر وقتًا طويلًا في التفكير. بمجرد انتهاء المكالمة تقدم إلى حيث تقف الطائرة وصعد سلمها بخطى سريعة، من دون اصطحاب أيٍّ من مساعديه. حين دخل الطائرة توقف مكانه بعد أن أظلمت عيناه من تأثير وهج الشمس في الخارج، ثم بدأت عيناه تتبينان بالتدريج معالم المكان. وجد أوديب جالسًا بمفرده في الطائرة. كان شاخصًا بوجهه الصارم إلى النافذة. انتظر ديتر أن يلتفت أوديب إليه، لكنه لم يعره اهتمامًا. ظل موليًا وجهه إلى طاقة النافذة الصغيرة، ينظر من ورائها إلى الفراغ المحيط بالطائرة والذي أصبح يحيط بحياته منذ ترك السلطة.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يواجه فيها ديتر ملك البلاد وجهًا لوجه. أو يقترب منه إلى هذه الدرجة. كانت تجاعيد وجهه أكثر وضوحًا مما كانت تبدو في الصور، وكان وزنه قد زاد قليلًا عما كان عليه حين كان يراه في الاجتماعات الرسمية التي حضرها معه وقت كان أوديب ما زال ملكًا لطيبة وقائدًا أعلى لجيوشها. هل زادت فترة الحبس من عمق هذه التجاعيد؟ أم أن المساحيق التي كانوا يغطون بها وجهه قبل التصوير كانت تخفيها؟ ثم هذا الوزن الزائد، هل هو علامة صحة أم مرض؟ لقد نشرت الصحف ووسائل الإعلام طوال الأشهر السابقة تفاصيل تدهور حالته الصحية منذ ترك الحكم على إثر ثورة الشعب ضده، وتحديد إقامته انتظارًا للنبوءة. وراء تلك الملامح الصارمة لاحظ ديتر لأول مرة نظرة حزن واضحة في عينَي الملك لم يكن قد رآها في الاجتماعات من قبل، ولا في أيٍّ من صوره.

سادت لحظة صمت طويلة قرر رئيس الأركان أن يقطعها بقوله: حمدًا للآلهة على سلامة الوصول.

استمر أوديب في النظر من النافذة ولم يرد.

فواصل ديتر: ألن تشرفنا بالنزول يا أوديب؟

نظر أوديب لأول مرة إلى حيث يقف رئيس الأركان وتفحص وجهه طويلًا ثم قال: من أنت؟

رد ديتر بابتسامة خفيفة: أنسيتني هكذا بسرعة يا أوديب؟ أنا الجنرال ديتر رئيس أركان المملكة.

تفحصه أوديب لحظة ثم قال: ألم أقم بترقيتك قبل أشهر قليلة؟! هل انضممت إلى كتيبة الخونة أنت الآخر؟

فرد ديتر: أنا مُكلَّف برعايتك يا أوديب، والسهر على راحتك في أثناء وجودك عندنا، فهلَّا تفضلت بالنزول معي.

فقال أوديب بهدوء: لقد قلت لهذا الأبله الذي أرسلوه معي إني لن أنزل من الطائرة.

فسأله ديتر: لماذا يا أوديب وقد كنت أنت الذي أعلنت أنك ستلتزم بالنبوءة وتنفذ ما جاء بها؟

كان رد أوديب صارمًا: اسمع أيها الجنرال، لقد بذلت عمري في خدمة هذا البلد، في الحرب وفي السلم، وحين حلت الكارثة وألَّبوا الناس ضدي بسبب الطاعون الذي لم أتسبب فيه، رفضت أن أترك طيبة وأهرب إلى الخارج. هذا بلدي الذي ولدت به وأخلصت في خدمته منذ عدت إليه بعد طول غياب. لقد رفضت دعوات الاستضافة التي جاءتني من ملوك العالم وحكامه، ولم أفعل هذا لينتهي بي الأمر في السجن كالمجرمين. إن من رتبوا لي الهروب أمس هم الذين يريدون سجني اليوم. فقل لهم إني كما رفضت الهرب أمس فإني أرفض السجن اليوم. لن يكتب التاريخ أن أوديب العظيم الذي يهابه الجميع ولا يهاب أحدًا، أنهى حياته مسجونًا كاللصوص وقطاع الطرق.

استمع رئيس الأركان في صمت إلى ما نطق به أوديب، ثم قال: لقد قبلت يا أوديب اللجوء إلى المعبد والاحتكام إلى نبوءة زيوس لمعرفة من الذي تسبب في البلاء الذي حل بالبلاد، ولقد ذكرتك النبوءة بالاسم. إن ما ننفذه الآن يا أوديب هو حكم زيوس إله الآلهة الذي تعلو كلمته فوق الجميع.

صرخ أوديب في وجهه: ماذا تقول يا رجل؟! أنا سبب البلاء؟! الملك أوديب هو سبب بلاء طيبة وخرابها؟! أأنا الذي جلبت الطاعون إلى البلاد؟!

قال الجنرال: هذا ما نطقت به النبوءة، ونبوءة زيوس لا راد لها.

فواصل أوديب وكأنه لم يسمع رئيس الأركان: أنا القائد الذي حمله الشعب على الأعناق وهتف باسمه. هل نسيتم أين كانت طيبة، وماذا كانت حالكم؟ لقد توليت العرش بعد مقتل لايوس والبلد على شفا حرب أهلية تهدد بفنائها. قُتل ملككم وانقسمتم على أنفسكم، عبدة بوسيبون يقتلون عبدة أورانوس، وعبدة أورانوس يحرقون معابد بوسيبون، كانت الآلهة على وشك أن تكتب فصل النهاية في تاريخ طيبة، ولولا حكمتي وحكمي الرشيد ما أُنقذت البلاد من مصيرها المحتوم. واليوم تريدون إيداعي السجن لأموت فيه؟! قد هرمت وفعلت بي السنون فعلها، لكني ما زلت قويًّا، وتاريخي المجيد لن يذهب سدى. هل نسيتم الانتصار في الحرب على إسبرطة؟ لقد جلبت لكم النصر بعد سنوات الهوان. كانت ضربتي القاضية هي التي حققت النصر لقواتنا. ماذا ستفعلون بهذا التاريخ بعد أن تسجنوني؟ هل ستدونونه على جدران زنزانتي كما يفعل فراعنة مصر في مقابرهم؟ هل ستُدرِّسون قصتي للأطفال في المدارس؟ وكيف ستقولون لهم إنكم سجنتم بطل الرواية؟ أم أنكم ستتناسون تاريخي وتمحونه كأن لم يكن؟ لا، لن يحدث هذا. أنا الملك أوديب القائد المظفر والبطل المغوار. تلك هي الحقيقة التي لا يمكن إنكارها،

وتاريخي لن يُمحى من على جدران الزمان. أوديب لن يُساق إلى السجن كالقتلة واللصوص.

استمع رئيس الأركان باحترام إلى حديث أوديب، ثم هَمَّ بالكلام، لكن أوديب أسكته: لن أنزل من الطائرة.

كانت طيبة هي أم البلاد، فهي أروع مدن اليونان القديمة وأعظمها. هي المدينة الكبرى عاصمة القوة والمجد، منبع الثقافة والعلوم، مركز الفلسفة والفكر، ساحة الموسيقى والغناء، فيها التماثيل العملاقة لآلهة جبل الأولمب، وفيها المعمار الشاهق الذي لا يطاوله بناء على وجه الأرض. وهي مسقط رأس الآلهة، ففيها ولد دينيسيوس، وفيها ولد هرقل أيضًا.

وكثيرًا ما خاضت طيبة الحروب ضد إسبرطة، تلك المملكة الغاشمة الطامعة في ثرواتها، وبعد عدد من الحروب التي انتهت لصالح إسبرطة فرضت تلك المملكة بعدوانها الآثم سيطرتها على البلاد. ومرت على طيبة سنوات عصيبة إلى أن هب أبناؤها البواسل ضد إسبرطة فشنوا عليها حربًا مفاجئة وانتصروا عليها، فتحرروا من ربقتها بعد سنوات من الهوان. وعادت طيبة مرة أخرى إلى بهائها واستعادت مجدها التليد.

لكن في عصر الملك لايوس تراجعت أحوال البلاد بعد أن مضت نشوة الانتصار، وساد جو من التناحر والاقتتال بين مختلف فئات الشعب، وخاصة بين عنصري الأمة؛ البوسيبون والأورانوس، حتى كادت طيبة تسقط في أتون الحرب الأهلية، وازداد تذمر الناس من أحوال البلاد، وبدأت تتصاعد المعارضة لحكم لايوس، فما كان منه إلا أن ألقى القبض على جميع معارضيه وألقاهم في السجون، فازداد التوتر وساد الاضطراب. وفي ذروة الأزمة اغتِيل لايوس. قتله قطاع الطرق على أبواب المدينة. لكن البعض كان يشك في تلك الرواية، فقد كان لايوس في سنواته الأخيرة قد استعدى جميع فئات الشعب وبدأ شيوخ البلاد يهاجمونه، فهل هم الذين قتلوه؟ أو حرضوا على قتله؟ لم يعرف أحد على وجه اليقين مَن قتل لايوس. ظلت سحابات من الغموض تحيط بمقتله الذي وقع خارج أسوار المدينة.

أما أوديب فقد وُلد على أرض طيبة إبان حكم لايوس لكنه غادرها مع والديه وهو طفل رضيع. كان والده راعي أغنام وكان يصحبه معه في المراعي والوديان التي كان يسكنها بعيدًا عن طيبة، إلى أن كبر وصار فارسًا شابًّا مفتول العضلات، فعاد مرة أخرى إلى أم البلاد التي طالما كان يسمع عن جمالها وعن أمجادها. ففي أحد الأيام امتطى أوديب جواده ومن دون أن يخبر أحدًا اتجه صوب طيبة. دخلها منتصرًا بعد أن قتل الوحش الرابض على أبوابها الذي ظل لسنوات ينشر الرعب بين الناس فلم يكن أحد يجرؤ على الخروج من أبواب المدينة بعد الغروب أو الدخول إليها، وحين خرج لايوس بحثًا عن ذلك الوحش الخرافي الذي شل حياة أبناء طيبة ونشر بينهم الرعب ليل نهار، اغتِيل على أبواب المدينة قبل أن يلقى الوحش. وحده أوديب انتصر على الوحش الذي بث الرعب في قلوب الجميع ولم يرَه أحد. ما إن دخل طيبة حتى أنزله الناس من على ظهر جواده، وحملوه على الأعناق. ومضوا به إلى مجلس شيوخ

طيبة حيث قام شيوخ البلاد بمبايعته فأصبح هو ملك طيبة المتوَّج وتزوج جوكاستا أرملة لايوس، وصارت بطولاته تُروى في جميع أسواق المدينة.

لكن طيبة حل بها فجأة البلاء. أصابتها اللعنة التي لم يعرف أحد لها سببًا، تراجعت قوتها وتردت أحوالها، فبدأ الزرع يذبل ويموت، وبدأت الحيوانات تنفق، وخلت الأسواق من البضائع، فاتجهت الأنظار كلها إلى أوديب الذي كان قد انتصر على الوحش المخيف الرابض على الأبواب، لكن أوديب خذل أهل طيبة ولم يقضِ على البلاء كما قضى على الوحش، فلا هو يعرف سبب ذلك البلاء ولا من أين جاء. وهكذا ازدادت الأحوال سوءًا، وأوديب قابع في قصره عاجز تمامًا عن وقف تدهور أوضاع البلاد. وطفح الكيل بالناس فلم يعودوا يحتملون استمرار هذه الحال. خرجت الجماهير إلى الشوارع والميادين في مظاهرات تصيح وتهتف مُعرِبة عن غضبها إزاء ما حل بالبلاد.

في البداية لم يلقِ أوديب بالًا لتلك القلاقل التي عدها أحداثًا اعتيادية لكل الشعوب، ثم بدأت المظاهرات تتزايد بشكل غير معتاد، وتكرر خروج الناس إلى الشوارع غاضبين متمردين. وبعد أن كانت أعدادهم في البداية لا تزيد على بضع عشرات في كل مرة، صاروا يخرجون الآن بالمئات. كانت قوات حرس القصر في كل مرة تقوم بتفريقهم وإلقاء القبض على قادتهم، لكنهم كانوا يعودون ثانية في اليوم التالي.

لم يعرف أوديب ماذا يفعل، فلا هو قادر على رفع البلاء الذي حَلَّ بطيبة، ولا هو قادر على وقف المظاهرات التي كانت تتزايد يومًا بعد يوم. كان كثيرًا ما يخلو إلى نفسه فيجلس وحده ساعات لا يعرف ماذا يفعل.

في أحد الأيام اقتحمت عليه جوكاستا خلوته فوجدته غارقًا في أحزانه، لا يعرف سببًا للعنة التي حلت بطيبة، ولا هو قادر على رفعها. وكان قلب جوكاستا يكاد ينفطر حزنًا على زوجها.

قالت له: أما من نهاية لهذا الوضع الذي أنت فيه؟

قال: اتركيني الآن يا جوكاستا وانصرفي.

قالت: لن أتركك وحدك في هذه الحال.

قال: لست بحاجة إلى أحد.

جلست جوكاستا إلى جواره، ووضعت ذراعها الحانية فوق كتفيه وقالت: اسمع يا أوديب. أنت غير مسؤول عما حدث.

قال: كيف هذا وأنا ملك البلاد؟

قالت: أنت لم تجلب اللعنة على طيبة.

قال: مسؤوليتي أن أتصدى للأزمة التي تمر بها طيبة. لكني أشعر بعجز يؤلمني. كيف أكون بهذا العجز وقد خضت المعارك، وهزمت الأعداء، وجلبت النصر للبلاد.

قالت: الكل يعلم من هو أوديب، ملك الملوك والبطل المغوار، لكن تلك الأزمة ليست مسؤوليتك وحدك. استدعِ رئيس الجيوش. استدعِ رئيس حرس القصر. استدعِ رئيس مجلس شيوخ طيبة. ضعهم جميعًا أمام مسؤوليتهم. قد يكون لديهم حل.

قال هازئًا: أتتصورين حقًّا أن هؤلاء السفهاء لديهم الحل؟ أنا أعرفهم جيدًا. هم لا يشغلهم إلا شيء واحد فقط، هو كيفية الاحتفاظ بمناصبهم. في هذا هم عباقرة، أما ما دون ذلك فلا يفقهون فيه شيئًا.

قالت: لا بد أنهم يدركون أن الأوضاع لو استمرت في التدهور بهذا الشكل فلن يحتفظوا بتلك المناصب التي يحرصون عليها.

قال: هم لا يدركون شيئًا ولا فائدة تُرجى منهم.

قالت: قد يكون، ولكن ليس لديك من تتباحث معه في أمور الدولة غيرهم.

عمل أوديب بنصيحة جوكاستا. كان يجد عندها دائمًا الرأي السديد، والنصيحة الرشيدة، فاستدعى الثلاثة الكبار الذين ذكرتهم، بما في ذلك كريون رئيس الجيوش، وهو شقيق جوكاستا مما قد يجعله أكثر حرصًا على إنقاذهم، وإن كان أوديب لا يثق فيه كثيرًا. أما توبياس رئيس مجلس الشيوخ فهو ثعلب ماكر لا يُظهر ما يبطن، وكم تمنى أوديب أن يخلعه، لكنه لم يستطع لكونه منتخَبًا وليس معيَّنًا من قبله. يبقى ميناندر رئيس حرس القصر وحافظ الأمن العام، الذي ربما كان أصدقهم لكنه أكثرهم غباء، والقمع بالنسبة إليه هو الحل لكل أزمة تواجه المملكة.

بادرهم أوديب في بداية الاجتماع بالقول: الأوضاع تدهورت ولم تعد تنبئ بالخير، وعما قريب قد تفقدون مواقعكم جميعًا، إن لم تفقدوا أرواحكم أيضًا، فلا تعود هناك مناصب، ولا يعود هناك حرس ولا شيوخ.

رد توبياس على الفور: إننا لم نسمع الجماهير تنطق باسم أيٍّ منا. الاسم الذي تصب الجماهير غضبها عليه في هتافاتها هو اسم آخر يا أوديب.

فصاح فيه أوديب: ماذا تقول يا رجل؟ أنسيت أنك تتحدث إلى أوديب ملك الملوك الذي هزم إسبرطة وجلب النصر لطيبة. أوديب بطل الأبطال الذي يهابه الجميع ولا يهاب أحدًا. إن كنت غير مدرك للوضع الذي نحن فيه فاصمت ولا تفتح فمك. فتدخل كريون بسرعة حتى لا تتطور المواجهة بين أوديب ورئيس مجلس الشيوخ. قال: الوضع بالفعل حرج جدًّا يا أوديب، ونحن ندرك ذلك.

فسأله أوديب: وما هو الحل يا كريون؟ جئت بكم كي تقدموا لي الحل.

قال كريون: المشاكل تشعبت وليس هناك حل واحد سحري يمكن أن يحل كل المشاكل دفعة واحدة، فدعونا نتعامل مع مطالب الجماهير فرادى. كل مطلب على حدة.

قال أوديب: فلتعلموا جيدًا أنه حين تسقط طيبة لن يبقى أحد منكم في موقعه. إن كنت تتصور يا توبياس أنك ستنجو وحدك من الغرق، أو سينجو معك أيٌّ من أعضاء المجلس، فأنت واهم. السفينة ستغرق بمَن عليها. فما هو الحل؟ أسألكم ما هو الحل.

قال توبياس: الحل يحتاج إلى بعض التروي و...

قاطعه ميناندر رئيس الحرس: لا داعي لكل هذا، إننا نواجه مجموعة من العملاء المخربين الذين يعملون لصالح إسبرطة، ولا وسيلة للتعامل معهم إلا بالقوة. القوة وحدها. فهم لا يفهمون إلا لغة القوة. يجب الاستمرار في القبض على كل من ينزل الشارع، وإلقائه في السجون. عندئذ سيفرون جميعًا كالجرذان ولن يبقى أحد بالشارع.

ثم أكد لهم أنه لا يحتاج إلا إلى مهلة قصيرة ليتمم مهمته وينتهي أمر هذه الثورة.

وانتهى الاجتماع بانحياز أوديب إلى رأي رئيس الحرس، فقد كان الرأي الوحيد الذي طُرح أمامه، وقد بدا حاسمًا وقاطعًا. لكن الأمور تصاعدت، ولم تؤتِ سياسة القمع ثمارها المتوقعة، فقد كان رئيس الحرس كلما ألقى القبض على العشرات خرجت عشرات أخرى إلى الشوارع والميادين، وسرعان ما تحولت المئات إلى آلاف مؤلفة. وبعد أن كان الناس في بداية الثورة ينزلون يوم العطلة الأسبوعية ويتمركزون في الساحة الكبرى، صاروا الآن أكثر صلابة في مواجهة القمع، وأخذوا ينزلون في كل أيام الأسبوع، ويملأون جميع الشوارع والميادين. وتوقفت حال البلاد تمامًا، ولم يعد أحد يذهب إلى العمل، وخلت المكاتب الحكومية من الموظفين وامتلأت شوارع طيبة وميادينها بالجماهير الغاضبة التي كانت ما إن تنصرف في الليل حتى تعود ثانية في الصباح لتملأ الشوارع من جديد.

كانت هيباتيا ذات الخمسة والعشرين ربيعًا هي أجمل بنات طيبة. كانت فتاة ممشوقة القوام، شعرها الكستنائي يصل إلى ما بعد وسطها النحيل، وعيناها اللوزيتان تأسران الشباب بلونهما العسلي وبأهدابهما الطويلة، أحبت هيباتيا بترو الذي بادلها الحب. كان شابًّا فتيًّا، رياضي البنية، ذكيًّا لماحًا، وقد شكَّل مع رفاقه من الشباب مجموعة ثورية كانت تنزل يوميًّا إلى الأسواق تحث الناس على الثورة. أحبت فيه هيباتيا شخصيته الناضجة ووسامته الآسرة وثوريته الوطنية.

كان بترو يعاني، كما يعاني بقية شباب طيبة، البطالة التي استشرت في البلاد في الوقت الذي أخذ المقربون من الحكم ودوائره يكنزون الأموال بلا خجل ولا حياء، تخرج بترو في المعهد العالي للسينما بدرجات متفوقة، وتطلع إلى أن يُعيَّن معيدًا بالمعهد وهكذا يضع قدمه على بداية طريقه في الحياة، فمع مواصلة عمله بالتدريس كان يتطلع إلى أن يشق لنفسه طريقًا جديدًا في سينما المستقبل التي كان يحلم بها. أحب الأفلام التسجيلية وكان يحلم بأن يجعل منها قالبًا فنيًّا محببًا للجمهور، فطيبة هي المستودع الأكبر للموضوعات التسجيلية، بتاريخها المجيد وآثارها المبهرة وحاضرها الثري. كان بترو يرى من حوله الموضوعات الصالحة للتصوير تناديه؛ موضوعات اجتماعية وفنية وبيئية، لكن اهتمامه الأكبر كان منصبًّا على السياسة، لم يكن له نشاط حزبي ولم ينتمِ لأي جماعة سياسية لكنه كان مهتمًّا بالحرية التي كان يجدها غائبة في المجتمع. كان مهمومًا بحق المواطن في الحياة الكريمة، فهو فنان سينمائي لكنه كان مهتمًّا بالشأن العام. كان يرى أن الفنان الحقيقي لا يجب أن ينفصل عن قضايا المجتمع، لذا كان يؤمن بأن من واجبه أن يدافع عن حرية المواطن في مواجهة نظام أوديب المتسلط، فالحريات في رأيه كانت هي مقياس تَقَدُّم المجتمع، وعليه أن يناضل من أجل حصول المواطن على حريته.

لكن أفكار بترو كلها؛ السياسية والمهنية، ظلت في نطاق الأحلام، ووظيفة المعيد بمعهد السينما التي كان يتطلع إليها كانت محجوزة في سنة تخرجه، لزميله في قسم الديكور لأنه ابن عميد المعهد، ذلك أن المحسوبية والوساطة كانت هي القاعدة في كل مكان في طيبة. حاول العمل في بعض المهن التي لا تتوافق مع موهبته الفنية، ولا مع السنوات التي قضاها في الدراسة. عمل مندوبًا للمبيعات بشركة مستحضرات طبية، وعمل سائقًا على سيارات أوبر. كان مرغمًا على ذلك كي يلبي احتياجاته اليومية. لكنه كان يعلم أنه لن يبني حياته مع هيباتيا بتلك الأعمال المتواضعة.

كان أشد ما يحير بترو ويحزنه هو كيف تدهورت حال البلاد بهذه السرعة. كيف خلال فترة

تقل عن ثلاثة عقود من الزمان هي عمره في الحياة، حل كل هذا الدمار؟ فمنذ وعى على الدنيا والحال هي الحال، لا يطرأ عليها أي تقدم، بل يتراجع مع كل يوم جديد، ويتدنى مستوى معيشة الناس من يوم إلى يوم.

كانت أسرة بترو من أتباع بوسيبون وهم أغلبية سكان طيبة، أما هيباتيا فكانت من أسرة تنتمي إلى أتباع أورانوس، وقد سالت دماء كثيرة بين الطائفتين وقت حكم لايوس، وحُرِّم الزواج بينهما بسبب الفتنة الكاذبة التي عمت البلاد وكادت تفتك بطيبة وبأهلها. وكثيرًا ما نصح البعض هيباتيا بأن تنتقل إلى طائفة حبيبها مثلما كان يفعل البعض حتى يسهل زواجهما، لكن بترو كان يرفض ذلك. كان يود أن يصبح هو وحبيبته مثالًا لتآخي الطائفتين في ظل الوحدة الوطنية التي عرفتها طيبة طوال تاريخها. كان بترو يقول: لقد أحببت هيباتيا وهي من أتباع أورانوس وسأتزوجها وهي على دينها، وكانت هي تقول الشيء نفسه، وهكذا صارا المثل الحي على روح المحبة والتآخي بين الطائفتين اللتين طالما تعايشتا في سلام على أرض طيبة.

كان لبترو عدد من الأصدقاء الذين يشاركونه آماله في المستقبل الذي يتمنونه لطيبة، لكنهم مثله لم يكونوا يؤمنون بأيٍّ من الأحزاب القائمة. كانوا يرونها أحزابًا ورقية لا تأثير لها في المجتمع. كانوا مجموعة من المنتفعين السياسيين الذين لا قيمة لهم. لذا شَكَّل بترو مع أصدقائه جماعة ثورية مستقلة تحلم بمستقبل أفضل للبلاد وتعمل على تغيير الوضع القائم الذي لا يُرجى منه أي نفع.

كان أقرب الناس له في المجموعة هو لوكاس صديقه منذ أيام الطفولة. كانا زميلين بالمدرسة، لكن بعد التخرج دخل لوكاس كلية الهندسة والتحق بترو بالمعهد العالي للسينما، لكنهما ظلَّا على تواصل، ثم تشاركا في تكوين تلك المجموعة الثورية التي انضم إليها عدد آخر من أصدقائهما. كان من بينهم هيباتيا التي آمنت بأفكار بترو وشاركته معتقداته، وكان من بينهم أيضًا تيا خطيبة لوكاس التي ارتبط بها بعد تخرجه في الجامعة. لكن لوكاس مثل بترو، ومثل معظم شباب طيبة؛ كان عاطلًا بلا عمل، ومثل بترو ومعظم شباب طيبة كان يتطلع إلى مستقبل أفضل.

لم ينسَ بترو خلال مشاركته في المظاهرات أنه سينمائي صاحب رسالة. كان يحلم طوال الوقت بمشروعه الكبير لتطوير الفيلم التسجيلي وفق أفكار كانت واضحة في ذهنه. كان يصور تحركات الجماهير من حوله والتي كان يعتبرها أحداثًا تاريخية عليه أن يسجلها للتاريخ. كان الحماس كثيرًا ما يأخذه فيُنزل الكاميرا ليشارك الجماهير المحيطة به هتافاتها، ثم يعود فيُصوب الكاميرا نحو الجماهير ليُسجل أحداث الثورة في أثناء وقوعها.

في أحد الأيام توجه المتظاهرون من دون توجيه مُسبَق من أحد، إلى مقر مجلس شيوخ طيبة،

رمز هذا الحكم المستبد وعنوانه، وهجمت الجماهير على المبنى وهي تصيح منادية بسقوط النظام بأكمله. وصعد بترو بسرعة إلى سطح المبنى فتسلق إلى قبة المجلس وأخذ يصور الجماهير في لقطات لم يكن يحلم بأن يسجلها. من هذا الموقع الشاهق ظهرت أمام بترو الثورة الآتية من جميع أنحاء البلاد. ظهرت كعملاق مترامي الأطراف.

مكث بترو فوق القبة ما لا يقل عن عشرين دقيقة، صور خلالها لقطات نادرة أحس أنها ستضيف بعدًا هامًّا للفيلم الذي يصوره. ثم فجأة شاهد قوات الحرس وهم يضربون زملاءه بهراواتهم بوحشية غير مسبوقة، فقرر النزول فورًا ليدافع عنهم. في قفزات سريعة ومتلاحقة نزل بترو من فوق المبنى. كان الحرس كلما طالوا أحد المتظاهرين قيدوه ودفعوا به فورًا إلى سياراتهم السوداء القبيحة. قبضوا في ذلك اليوم على الشباب والشيوخ، والرجال والنساء، بأعداد كبيرة.

بمجرد أن وطأت قدم بترو الأرض اشتبك مع رجال الحرس غير عابئ بوحشيتهم. حاول تخليص زملائه فنالته ضربة من أحد أفراد الحرس، لكنه أفلت منهم بسرعة ونجح في تخليص أحد الشباب من قبضتهم. نظر إليه الشاب وفي عينيه نظرة امتنان صامتة، ومن الخلف انقض عليه اثنان من أفراد الحرس وقيَّدا يديه خلف ظهره، ثم جاء فرد آخر من الحرس وأخذ يضربه بهراوته. وجاءت إحدى الضربات على رأسه فدارت به الدنيا وبدأ يترنح.

صرخت هيباتيا في قوات الحرس لكن أحدهم أزاحها من أمامه بعنف فوقعت على الأرض فأمسك بها مما أثار بترو، فاستجمع قواه ورفس الحرس المطبق على يديه خلف ظهره كالفرس الهائج وقفز إلى نجدة هيباتيا. وما إن خلَّصها ووقفت على قدميها حتى انقض ثلاثة حراس على بترو ودفعوا به إلى السيارة، فخلع بترو الكاميرا المُعلَّقة برقبته وقذف بها بسرعة إلى هيباتيا قبل أن يغلقوا عليه باب السيارة.

من خلال قضبان النافذة الصغيرة للسيارة شاهد بترو هيباتيا وهي تعلق الكاميرا برقبتها وترفع له يدها بعلامة النصر، بينما تحركت به السيارة إلى حيث لا يعلم وهو يشعر بدوار في رأسه لازمه بقية اليوم. وعلى قدر قلق هيباتيا البالغ على مصير بترو على قدر سعادتها بوجود الكاميرا معها. كانت تعلم ماذا تعني الكاميرا لحبيبها، فقد كانت الشيء الوحيد الذي يُذكره بهويته الفنية وبالسنين التي قضاها في دراسة فنونها. كان وجود الكاميرا معه يؤكد له على الرغم من البطالة التي يعانيها، أنه فنان سينمائي، له هدف ورسالة في الحياة، وكانت هيباتيا تخشى أن الكاميرا إذا ذهبت مع بترو إلى الحبس فقد يصيبها سوء أو لا تعود.

مضت أيام هيباتيا طويلة وكئيبة من دون بترو. كانت تنزل مع الرفاق إلى الشوارع والميادين تطالب معهم بانقضاء الظلم وبتخليص طيبة من البلاء الذي حل بها، وكانت تشعر طوال

الوقت بأن بترو إلى جانبها، يشد من أزرها، ويعضد من حماسها، ويدفعها إلى الأمام. كانت تحمل معها الكاميرا كلما نزلت إلى الشارع، وتقوم بتصوير مشاهد الثورة في الشارع حتى يستطيع بترو مشاهدتها بعد الإفراج عنه، وكأنه عايشها بنفسه وقت وقوعها، وكانت مع كل يوم جديد تنتظر لحظة خروجه من الحبس، لكن اليوم كان يمضي من دون أن يخرج، فتذهب إلى فراشها حزينة، يحدوها الأمل في أن خروجه سيكون في اليوم التالي.

مع تفاقم الأوضاع في طيبة وازدياد الفقر، انتشر فجأة وباء الطاعون في جميع أنحاء البلاد، وأخذت أعداد الضحايا ترتفع بسرعة بسبب تردي مستوى الرعاية الصحية وسوء حال المستوصفات العلاجية. كان الضحايا يموتون بالعشرات كل يوم، وخرج العجوز الأعمى تيريسياس يجوب الطرقات بثيابه البالية يسحبه من يده الصبي ماريوس، وهو يصيح في الأسواق: يا أهل طيبة! اللعنة حلت بالبلاد! الغُمة نزلت على طيبة! ولن تزول اللعنة ولن تنزاح الغمة إلا بمحاسبة مَن تسبب فيها! يا أبناء طيبة! يا أهل البلاد! زيوس إله العدل وكبير الآلهة يطالبكم بالقصاص. يا أهل طيبة! لقد وقع عليكم البلاء فويل لكم وويل للبلاد! يا أهل طيبة! أيها الناس! أيها الناس!

تجمع الناس في الأسواق يستمعون إلى العجوز الأعمى ويحاولون استجوابه لمعرفة أصل البلاء ومَن الذي تسبب فيه؟ سألوه من الذي جلب الطاعون؟ لكنه لم يكن يستمع إلى أحد، ولم يكن يتوقف عند أحد، كان يمضي في طريقه يسحبه ماريوس وهو يصيح: يا أهل البلاد! يا أهل البلاد! لقد طغى أورانوس واستبد بالعباد فقتله ابنه كرونوس. قطعه بالسكين إربًا ورمى أشلاءه في البحر، فعبد الناس الابن وقدسوه، فهو الذي خلَّصهم من طغيان أورانوس، لكن الأمر لم يدم طويلًا. فقد تحول كرونوس وتبدل مع الأيام، صار يشبه أباه، قتل أباه يا أهل طيبة وصار مثله، صار يستبد بالبشر. أيها الجالسون على العروش، حذارِ من الاستبداد، حذارِ من الطغيان! يا أهل طيبة لقد حلت علينا اللعنة وطالنا البلاء، وما كان ينقصنا إلا الطاعون، لطفًا أيتها الآلهة. يا أهل طيبة! الويل لكم من الطاعون. يا أهل طيبة!

ظل أوديب قابعًا في قصره على قمة الجبل ينقل إليه أفراد الحرس تطورات الأمور ويسمع من بعيد هتافات الجماهير وهو غير قادر على السيطرة على الموقف، وبلغه نبأ تيريسياس فأمر الحرس بالنزول إلى الشوارع والأسواق، أمرهم أن يجوبوا الميادين والطرقات ولا يعودوا إلا ومعهم ذلك العجوز الدجال.

قال له ميناندر رئيس الحرس إنه مجنون يهذي، لكنه أمرهم أن يحضروه.

وخرج رجال الحرس يبحثون عن تيريسياس العجوز في جميع أنحاء البلاد. سألوا عنه في كل مكان حتى وجدوه فقبضوا عليه وهموا يقيدونه بالسلاسل.

قال لهم: ولمَ كل هذا وأنتم الحرس حامي الأمن والنظام؟ هل تجدون في رجل عجوز مثلي خطرًا على الأمن العام؟

لقد وُلدت قبل أن يأتي أيٌّ منكم إلى هذه الدنيا، ألا تخجلون؟!

قالوا له: أوديب أمرنا بالقبض عليك.

قال: وهل صار ملك البلاد لا يلتقي برعاياه إلا وهم مقيدون بالسلاسل والأغلال؟! لستم بحاجة إلى ذلك، ولست بحاجة إليكم، سيقودني هذا الصبي الأعزل إلى القصر.

ومضى تيريسياس يقوده ماريوس إلى قصر أوديب، بينما ظل يحيط به رجال الحرس من كل جانب، حتى وصلوا إلى أبواب القصر ففُتحت لهم ودخل تيريسياس يسحبه الصبي من يده. ثم مضى بهما كبير الحرس من رواق إلى رواق حتى وصلا إلى قاعة العرش، فترك تيريسياس ماريوس على بابها واقتاده كبير الحرس بمفرده إلى مجلس أوديب.

حيا تيريسياس أوديب قائلًا: سلام عليك يا أوديب!

فرد عليه أوديب: ليس بيني وبينك سلام أيها العجوز الدجال! ألست أنت الأعمى الذي يدَّعي الرؤية والبصيرة؟! لماذا تؤلب الناس ضدي وتنشر القلاقل في البلاد؟ من أنت؟ وماذا تريد؟

فرد عليه تيريسياس: من قال لك إنني أريد شيئًا؟ ليس لديك يا أوديب ما يلزمني، وجاه الدنيا ما يساوي عندي شيئًا. هذه الدنيا كلها إلى زوال.

فرد أوديب في سخرية: أنت نبي زاهد إذن. إذا كنت حقًّا بهذا الزهد فلماذا لا تبقى في حالك وتترك الناس لشأنها؟

رد تيريسياس: الصامت عن الحق شيطان أخرس!

قال أوديب: وأنت حكيم أيضًا؟ وما هو بحق الآلهة ذلك الحق الذي يدفعك إلى الصياح هكذا في الأسواق كالمجاذيب؟ قل لنا لعلنا نهتدي إليه وننقذ البلاد من الطاعون الذي حل بها وجعل أمثالك يؤججون مشاعر الناس.

رد تيريسياس: الحق لا يحِق إلا بإحقاقه!

فنهره أوديب: إن كان كل ما لديك هو تلك السفسطة الفارغة فسآمر بقطع لسانك هذا الذي لا جدوى منه ولا نفع.

أخذ تيريسياس عدة خطوات في اتجاه صوت أوديب إلى أن اقترب منه وقال: أيها الملك الجالس على عرش طيبة لا بد قد بلغك أن الجماهير من الرجال والنساء والأطفال والشيوخ قد عبأوا جميع طرقات طيبة حتى لم يعد بها موضع قدم، وعما قريب قد يقتحمون قصرك هذا. إن طيبة عصفت بها المِحَن، فالطاعون يحصد أرواح الناس في جميع أنحاء البلاد، والموت يطيح بقطعان الماشية في المراعي والوديان بعد أن نضب الزرع وسقطت الثمار. الآبار جفت وانتشر الخراب في كل مكان. اسمعني يا أوديب! إن كنت بالفعل تبحث عن الحق فالحق ليس بعيد المنال. فلكل علة أسباب، والطاعون لم يأتِ من فراغ، إنه قمة البلاء الذي حل بالبلاد على مدى سنوات حكمك. لقد قتل كرونوس أباه أورانوس وجلس على عرشه.

قال له أوديب: تلك أساطيرنا المقدسة، فلماذا تهذي بها بلا مناسبة؟ أسألك عن الحق فتهرب إلى الأساطير.

فقال العجوز: وهل تقدر على مواجهة الحق يا أوديب؟ هل تتحمل معرفة الحقيقة؟ هل تقوى على التعرف على المتسبب في هذا البلاء؟

صفع أوديب العجوز على وجهه فترنح وكاد يسقط على الأرض: كفى! لقد نسيت نفسك أيها الدجال الأعمى. تذكر أنك تتحدث إلى أوديب الذي لا يهاب أحدًا ويهابه الجميع. أنا البطل المغوار الذي هزم إسبرطة وجلب لكم النصر. أنا الذي حطمت سهامهم وصرعت مليكهم مينيلاوس بسيفي البتار. أتنكر هذا؟

استجمع تيريسياس قواه وقال في هدوء: ذلك هو حديث الماضي يا أوديب. أنا أبصرك بالمستقبل.

فقال أوديب: كف عن حديث الألغاز هذا وقل لي ما عندك؟ قل لي يا من تدَّعي العلم والمعرفة ما هو سبب البلاء الذي حل بطيبة؟ ومن هو المجرم الذي تسبب فيه؟

فابتسم تيريسياس وقال: عجبًا لك يا أوديب! تتهمني بالدجل ثم تتعامل معي وكأني من المنجمين.

فقال أوديب: حيرتني يا رجل، لقد نفد صبري.

اقترب أوديب من تيريسياس وأمسك بتلابيب أرديته البالية وجذبه إليه وهو يقول: اسمع يا رجل إن لكل شيء نهاية، إما أن تفصح لي عما تعرفه أو سأجعلك تصمت إلى الأبد.

فاهتز جسد تيريسياس النحيل وهو يخلص نفسه من قبضة أوديب وقال: قلت لك الحق ليس عندي!

صاح أوديب: عند مَن إذن؟

رد تيريسياس: الحق عند الآلهة وحدهم، قد يوحون إلينا به، وقد يلهموننا ببعض ملامحه، لكنهم وحدهم الذين يملكونه. إن كنت جادًّا بالفعل في معرفة الحق فمعبد زيوس العظيم ليس ببعيد، هو كبير الآلهة، هو القضاء وهو القدر، إنه إله الحق والعدل، فاحتكم إليه واستمع إلى كلمته. ستقول لك نبوءته من المذنب، فهل تقوى على ذلك؟

رد أوديب على الفور: يا لك من عجوز أبله لا يعرف قدر الناس. اذهب من هنا ولا تُرني وجهك ثانية، فلا جدوى منك.

ثم نادى أوديب على الحرس وقال لهم: خذوا هذا الدجال الأعمى من هنا. اقذفوا به حيث وجدتموه.

خرجت هيباتيا وحدها مع الجماهير من دون أن يكون معها بترو، ولم تنسَ أن تأخذ معها الكاميرا الخاصة به لتصور له مشاهد الجماهير وقد افترشت الشوارع والأرصفة رافضة أن تعود إلى بيوتها قبل أن ينزل أوديب عن العرش. تأملت هيباتيا التعبيرات الغاضبة التي ارتسمت على وجوه الناس، واستمعت إلى هتافاتهم، واغرورقت عيناها بالدمع رغمًا عنها. كم كان بترو سيود أن يكون موجودًا في هذا اليوم. كم كان سيود أن يشارك الجماهير هتافاتها. كم كان سيود أن يسجل كل هذا بكاميرته، فها هي الجماهير صاحبة هذا البلد وقد استحوذت الآن على جميع الشوارع والميادين وزاد تصميمها على إحداث التغيير.

كان أصدقاء بترو وزملاؤه يحيطون بهيباتيا في أثناء غيابه، ويداومون على السؤال عنها، وقد أسعدها ذلك لكنها كانت تشعر بخواء أيامها لغياب بترو وكأن حياتها قد فقدت معناها. كان وجوده يملأ أيامها ولياليها. كانت تمضي معه النهار كله، وتنام الليل لتحلم به. والآن قد غاب عنها فترك فراغًا يبتلع كل جميل في حياتها كالثقب الأسود الذي يبتلع كل ما حوله في الفضاء من نجوم مضيئة إلى العمق السحيق الذي لا قرار له.

واصلت هيباتيا نزولها يوميًّا إلى الشارع والتحامها بالجماهير لمتابعة تطورات الثورة التي شاركت فيها زملاءها، ولكي تحكي لبترو تفاصيلها التي وقعت في غيبته وتصور له مشاهدها. كانت كلما فقدت بعض عزمها وجدت تشجيعًا من أصدقائها بمواصلة المشوار. كانوا يمرون عليها ليصطحبوها معهم إلى تجمعات الجماهير في الشوارع والميادين.

اليوم مرت عليها تيا صديقتها المقربة وخطيبها لوكاس. كانت تيا ترتدي فستان زفاف أبيض، بينما يرتدي لوكاس حلة سوداء. قالا لها إنهما عقدا قرانهما، وقررا أن يكون زفافهما وسط الجماهير في الساحة الكبرى. فرحت هيباتيا لهما وعانقت تيا، لكنها شعرت بغصة في صدرها، ولم تكن متأكدة إذا خرجت معهما إن كانت ستقوى على تحمل الموقف وهي تعاني غيبة حبيبها، وخشيت أن يظهر حزنها أو تبكي وسط الاحتفال فيُساء فهم مشاعرها، لكنها تذكرت الكاميرا والمهمة التي اتخذتها لتصوير الأحداث التي تهم بترو حتى لا يفوته تسجيلها في الفيلم الذي يحلم به، والاحتفال بزواج تيا ولوكاس وسط جماهير الساحة سيهمه تسجيله، ثم إن لوكاس هو صديقه المقرب وقد نشأت بينها وبين تيا صداقة قوية جعلت هيباتيا في وضع حرج إن هي اعتذرت عن النزول معهما في ذلك اليوم الخاص جدًّا بالنسبة إليهما.

حملت هيباتيا الكاميرا وخرجت مع صديقيها. وحين وصلوا إلى الساحة كان تيريسياس مقبلًا من بعيد وقد سحبه الصبي من يده وهو يصيح: يا ساكني القصور إن عقاب الآلهة شديد فتعالوا إلى كلمة زيوس إله العدل، ملك الملوك. لا تعاندوا الآلهة فعقاب الآلهة لا يحتمله بشر.

أخذت هيباتيا تصور تيريسياس وقد تحسس أحد أرصفة الساحة وجلس عليه بينما أخذت الناس تتحلق حوله. قربت الكاميرا منه وهو يقول: كان طنطالوس ملكًا متوجًا على إحدى ممالك الأناضول، لكنه أغضب الآلهة فحكمت عليه بعقوبة قاسية، هي الشعور الأبدي بالحرمان. فعقاب الآلهة شديد. وهم يتفننون في عقابهم فيأتي على كل شكل ولون. وقد حكمت الآلهة على طنطالوس أن يمضي أيامه واقفًا وسط بركة ماء عذبة وقد تدلت أطيب الثمار من شجرة فوق رأسه، لكنه كان كلما شعر بالجوع وهَمَّ بقطف إحداها أمرت الآلهة أفرع الشجرة بأن ترتفع بسرعة فلا يطولها، وكلما أحس بالعطش وهَمَّ بالشرب من مياه البركة أمرت الآلهة المياه أن تنحسر بسرعة فلا يطول منها نقطة واحدة. وظل طنطالوس إلى أبد الآبدين يعاني الجوع ويشعر بالعطش من دون أن يتمكن للحظة واحدة من أن يشبع جوعه أو يروي ظمأه. وما زال طنطالوس في عذابه حتى هذه اللحظة التي أحدثكم فيها.

فجأة ظهرت وسط الناس قوات الحرس وكأنهم أشباح خرجوا من تحت الأرض. هجموا على تيريسياس العجوز وهموا بضربه بهراواتهم، لكن الجماهير أحاطت به على الفور محاولة منع وصولهم إليه.

أنزلت هيباتيا الكاميرا بسرعة من على عينها وصرخت في الحرس: يا لكم من جبناء معدومي الضمير والإحساس. ألا ترون أن الرجل في عمر أجدادكم؟ وأنه ضرير لا يبصر الطريق؟

أحاطت مجموعة من الشباب بالحرس، ونشبت بين الجانبين معركة حامية، انسحبت قوات الحرس على إثرها تحت وطأة تأنيب الجماهير لهم والتي أخذت تتزايد وتنتشر، حيث انضم النساء والرجال والشباب والشيوخ لوابل الهجوم الذي بدأته هيباتيا، فاختفت القوات فجأة كما ظهرت، بينما سحب ماريوس تيريسياس إلى خارج الساحة وهو يواصل صياحه: يا ملوك الاستبداد! القوة زائلة والمُلْك لا يدوم! يا ساكني القصور! لا يأخذكم غرور السلطة، فعقاب الآلهة آتٍ لا محالة.

ظلت هيباتيا تتابع تيريسياس بالكاميرا حتى اختفى، وعم الساحة شعور بالفرح لأنهم خلَّصوا العجوز من بين مخالب قوات الحرس. ثم تبينوا وجود لوكاس وتيا في قلب الميدان بزي الفرح فحملوهما على أعناقهم وطافوا بهما الساحة وسط صيحات احتفالية من البعض وتلويح بسعف النخيل من البعض الآخر، وشارك جميع مَن في الساحة في الاحتفال بهذا الزواج الذي ولد من رحم الثورة، وانعقد احتفاله بين أبنائها.

وكما صورت هيباتيا تيريسياس، وصورت المعركة التي دارت حوله، قامت أيضًا بتصوير الاحتفال بزفاف تيا ولوكاس بكل تفاصيله، ولم تخنها دموعها كما كانت تخشى، فقد استحوذت الفرحة على كل مشاعرها، ولم تترك مكانًا للأحزان.

دخل كريون رئيس الجيوش على أوديب ومعه توبياس رئيس مجلس شيوخ طيبة، ودخل وراءهما وفد من أعضاء مجلس الشيوخ. كانت على وجوههم جميعًا علامات الغضب، ومن أعينهم تطاير الشرر.

قال أوديب وقد أخذته المفاجأة: ما هذه الزيارة المفاجئة؟ رئيس الجيوش ورئيس الشيوخ في زيارة واحدة؟ وما هذا الوفد الذي لم أستدعِه؟ ماذا وراءكم؟ هل وجدتم الحل للأزمة؟

قال كريون: لقد وصلنا إلى نقطة اللاعودة يا أوديب، وفي أي لحظة يمكن أن يفلت منا زمام البلاد.

لاحقه أوديب بسرعة: أعرف حقيقة الوضع كما تعرفونه، وقد أخبرتكم به في اجتماعنا السابق، فلا تضيعوا الوقت وقولوا لي مباشرة ما الذي جاء بكم؟ ماذا تريد يا كريون؟ ماذا تريد يا توبياس؟ هل جئتم تقدمون لي الحل؟

قال كريون: لقد قررنا الاحتكام إلى العدالة. سنطلب النبوءة من زيوس إله العدل وكبير الآلهة، وعليك أن تقبل بذلك، فالحالة تتدهور من يوم إلى يوم ولا يمكن أن نقف مكتوفي الأيدي.

وأضاف توبياس: يجب أن نعرف ما سبب البلاء الذي حل بالبلاد، ومن الذي تسبب فيه.

قال أوديب: خيرًا فعلتم. الاحتكام إلى إله العدل سيهدينا إلى طريق الصواب.

وتصور أوديب أن الزيارة حققت بذلك الغرض منها وأنها ستنتهي عند هذا الحد، لكن زواره لم ينصرفوا. ظل كريون وتوبياس يتبادلان النظرات من دون أن يبادر أحدهما بالكلام.

قال أوديب: ماذا هناك؟ أليس هذا كل شيء؟

رد توبياس بسرعة وكأنه كان ينتظر هذا السؤال: لا ليس هذا كل شيء يا أوديب.

فقال أوديب: ماذا أيضًا؟ هاتوا كل ما عندكم.

قال كريون: اسمع يا أوديب، الشارع لن يهدأ إلا إذا استجبنا لمطالبه. لقد جربنا كل الحيل؛ اللين والشدة، لكن لا فائدة.

قال أوديب وقد بدأ يداخله الشك في نواياهم: ثم ماذا؟

رد توبياس بلا تردد: عليك أن تنزل عن عرش طيبة.

نزلت كلمات توبياس على أوديب كالصاعقة. شعر بالدنيا تدور به، لكنه تماسك وقال له في هدوء غير خالٍ من السخرية: وهل تتصور بحكمتك المعهودة يا شيخ الشيوخ أن مجرد نزولي عن العرش سيهدئ الأوضاع، سينهي المظاهرات، سيعالج الطاعون الذي انتشر في البلاد

بسبب إهمالكم أنتم؟

حاول توبياس الرد لكن أوديب قاطعه: أجبني يا رئيس المجلس. أجبني يا رئيس الجيوش. أجيبوني جميعًا، هل تنازلي عن العرش هو الحل السحري الذي سيعيد الأمور إلى نصابها؟

هنا قال توبياس: لقد تعددت مطالب الجماهير طوال الفترة الماضية، لكنها الآن تركزت كلها في شخصك أنت يا أوديب باعتبارك ملك البلاد والجالس على عرشها، فإذا...

قاطعه أوديب: لقد طال جلوسي على العرش واستماعي إلى ترهاتكم. لقد استعديتم عليَّ الشعب بسياساتكم الفاشلة، وأججتم غضب الجماهير بسرقاتكم الفاضحة، والآن تريدون إلقاء اللوم عليَّ؟

هَمَّ رئيس مجلس الشيوخ بالكلام، لكن أوديب أسكته: لا تحاول الرد. إن جرائمكم ملء السمع والبصر، وقد أخطأت أني سكت عليكم طوال تلك السنين.

ثم أضاف وعلى شفتيه ابتسامة: لكن قل لي يا توبياس لمن تريدني أن أتنازل عن العرش؟ لك أنت أم لكريون؟

رد توبياس: لقد اتفقنا على أن يؤول الحكم إلى كريون.

قال أوديب: إذن فقد رتبتم كل شيء. ألم تأخذوا في حسبانكم أن الجماهير تمقتكم جميعًا، وأنكم إذا نزلتم إلى الشارع فسيبصقون عليكم، وربما فتكوا بكم. إن تولي أيٍّ منكم العرش سيزيد من غضب الجماهير ولن يهدئها.

قال توبياس وقد ازدادت حدته: لا تنسَ يا أوديب أن المجلس الذي يطالبك اليوم بالتنازل عن العرش هو الذي أجلسك عليه.

قال أوديب: وما معنى هذا؟ أهو تهديد بخلعي عنه؟

رد توبياس: هو تذكرة بالتاريخ.

قال أوديب: إذن دعني أُذكرك أيضًا يا رئيس مجلس الشيوخ أنكم حين توجتموني ملكًا على طيبة، كان ذلك نزولًا على رغبة الجماهير التي حملتني على أعناقها عند دخولي المدينة، وهي التي نادت بي ملكًا. هل تذكر ذلك يا رئيس مجلس الشيوخ؟

ثم كان دور كريون في الحديث فقال: لقد تحولت الجماهير عنك يا أوديب، وبعد أن حملتك على الأعناق صارت اليوم تهتف بسقوطك. الجماهير التي تتحدث عنها يا أوديب تطالب الآن بعزلك، ولن تهدأ الأوضاع قبل أن تلبي طلبها.

سكت أوديب قليلًا ثم قال: لا أخفيك سرًّا يا كريون أنني فكرت في ذلك مرارًا، لكني لن أفعلها بأوامر من أحد.

اقترب كريون من أوديب وقال له فيما يشبه الهمس: إذن افعلها بإرادتك يا أوديب. لكن افعلها الآن، فالوضع لم يعد يحتمل تأخيرًا.

أشاح أوديب بوجهه عنهم ومضى بعيدًا عنهم إلى الجانب الآخر من القاعة فوقف وقد أعطاهم ظهره. مضت لحظات صامتة لم ينبس أحد خلالها بكلمة. وبعد قليل استدار أوديب فواجههم من حيث هو وقال: إذن هذا هو قراري: سأنزل عن عرش طيبة. فقد سئمت وجوهكم الكالحة التي فُرض عليَّ أن أطالعها كل يوم. سأترك القصر من الآن، ولكنه قرار مؤقت، إلى حين تنصفني النبوءة المقدسة وتبرئ ساحتي. عندئذ اعلموا جميعًا أنني سأعود بكلمة الحق من زيوس العظيم، وسأجلس على هذا العرش الذي لن يستطيع أن ينازعني فيه أحد. وسأحاسب كل من تسبب في البلاء الذي حل بالبلاد. سأعيد الخضرة والنماء لأرض طيبة وأطهر أجواءها من أنفاسكم الملوثة، وسأعيد كتابة تاريخ البلاد الذي لوثتموه، سأكتبه من جديد بدمائكم، كلمة بكلمة، وسطرًا بسطر. سأُذكر الناس ببطولاتي التي أنسيتموهم إياها بسوء أعمالكم، سأذكرهم بضربتي القاضية التي انتصرت بها على جيوش إسبرطة الغازية. سأعيد أمجاد طيبة الغابرة، منارة العلم والفن، رمز القوة والجمال.

وقف كريون وتوبياس وسط وفد مجلس الشيوخ في الجانب الآخر من القاعة يستمعون في ذهول إلى كلمات أوديب الذي بدا وكأنه يُلقي خطابًا في الجماهير.

واصل أوديب: فلتُعلنوا على الناس من اليوم أننا سنطلب نبوءة زيوس إله الآلهة وأن كلمته ستكون هي الحكم. قولوا للشعب إن أوديب قد نزل عن عرش طيبة إلى أن يُصدر إله العدل نبوءته، وعندئذ سنقوم بمحاسبة من تسبب في هذا البلاء الذي حل بالناس، وإني أتعهد بأن من جلب الطاعون سيلقى جزاءه، والآلهة على ما أقول شهود.

وما إن خرجوا من حضرته حتى نزل أوديب من عليائه فتنفس الصعداء ونادى على جوكاستا وقال لها أن تعد العدة كي يغادروا القصر في التو واللحظة مضيفًا: لن أبقى في هذا القصر دقيقة واحدة بعد الآن.

يقولون إن في السياسة التوقيت هو العامل الحاسم. هو الفارق بين النجاح والفشل، فإذا جاء الحدث في موعده حقق الغرض منه بنجاح، وإذا تأخر فَقَد معناه وسقط في بئر الفشل، وهذا ما لاقاه قرار أوديب المفاجئ بالتخلي عن الحكم. بدا قرارًا شجاعًا لكنه تأخر عن موعده، فحين وصل إلى مسامع الناس أن أوديب قرر النزول عن العرش كانت الجماهير قد تعاظم غضبها، واشتد تصميمها، فصارت لا تغادر الشوارع، لا في الليل ولا في النهار، وأعلن أهل طيبة أنهم لن يعودوا إلى منازلهم قبل أن تتحقق مطالبهم، لكن تلك المطالب كانت قد تصاعدت مع الوقت وانتقل الناس من المطالبة برفع البلاء والتصدي للطاعون وإصلاح أحوال البلاد إلى نزول أوديب عن العرش، وتعالت الهتافات المعادية حتى صمَّت الآذان، وخرج كريون رئيس جيوش طيبة ليعلن على الناس أن أوديب قد ترك له الحكم إلى حين إعلان النبوءة، وأنه سيتوجه إلى المعبد المقدس بنفسه لتلقي نبوءة زيوس إله الآلهة. لكن الجماهير لم تبرح الشوارع.

كان أوديب قد انتقل الآن هو وأسرته من القصر إلى خيمة عسكرية شديدة الحراسة خصصها له كريون. كانت خيمة فارهة بها أماكن للنوم وأخرى للاستقبال. كان أوديب جالسًا بين أفراد أسرته ينظر إلى جوكاستا وابنتيه وقد شعر بالحنين إلى هذه الأسرة التي كثيرًا ما افتقدها في القصر الكبير الذي تركه خلفه.

تقدمت منه جوكاستا وفي يدها طبق من الفاكهة، وأحاطت به ابنتاه أنتيجونا وهيلينا. التقط أوديب تفاحة من الطبق وهو يقول: كم افتقدت هذا الدفء العائلي يا جوكاستا! أشعر الآن بأنني لا أحتاج إلى شيء من الدنيا. سأتمم مهمتي بتنفيذ رغبة الآلهة حسبما ترد في النبوءة وأعيش بقية حياتي معك يا زوجتي الحبيبة ومع ابنتينا. لقد وجدت فيك يا جوكاستا سعادة لم أكن أحلم بها، واكتملت سعادتنا بأنتيجونا وهيلينا الحبيبتين.

قالت جوكاستا: لعلها بداية جديدة لنا يا أوديب، ترتاح فيها من صراعات السياسة وأهوال الحرب، ونعيش معًا في هدوء وسكينة مع ابنتينا.

ثم جلست إلى جواره وهي تقول: دعنا يا أوديب نخرج من طيبة ونقيم بعيدًا حيث لا يطولنا بعد اليوم أذى.

قطب أوديب حاجبيه وقال: ماذا تقصدين يا جوكاستا؟

فردت: أقصد أنك أمضيت حياتك كلها في خوض المعارك ومواجهة الصعاب، فلمَ لا ترتاح الآن؟

قال أوديب: أتبين في حديثك نغمة لا تريحني. ماذا وراءك يا جوكاستا؟ أفصحي.

كانت جوكاستا تعرف أوديب كما لا يعرفه أحد. كانت تعرف أنه لا يحب اللف والدوران. كان يصل إلى غرضه مباشرة ويتوقع من الآخرين أن يفعلوا معه الشيء نفسه، فلم تجادله كثيرًا. قالت: هل تتصور أننا سنظل مقيمين في هذه الخيمة هكذا كاللاجئين؟ لقد رتبت مع كريون أن نترك طيبة نحن والبنتان بعد منتصف الليل، سنمضي في حراسة مشددة من دون أن يتعرض لنا أحد. ستكون المراكب في انتظارنا بالميناء لتقلنا إلى الأناضول، وقد جرى الاتصال بالفعل بملك الأناضول الذي يَكِنُّ لك كما تعلم احترامًا كبيرًا فخصص لنا قصرًا منيفًا وحراسة تحول دون أن تصل إلينا أي يد عابثة. ستكون ضيفًا شخصيًّا على الملك. وقد عرض ملك كاساندريا استضافتك هو أيضًا وعليك أن تختار...

قاطعها أوديب وهو يقذف بالتفاحة التي كانت في يده: ما هذا الهراء الذي تقولين؟! أوديب لن يهرب من البلاد في جنح الليل كالمجرمين! لقد قبلت التنازل عن العرش إنقاذًا للبلاد، وتماشيت مع المؤامرة التي كان كريون شقيقك ضالعًا فيها لأني ليس لديَّ ما أخشاه. الآن يريد الخلاص مني بإبعادي عن البلاد؟

قالت جوكاستا: يا أوديب العظيم يا بطل طيبة وقاهر الوحوش، يعلم الجميع أنك اتخذت قرارًا لا يدانيك في شجاعته أحد، ولكن...

قاطعها أوديب ثانية: لكن ماذا؟ تكلمي.

ردت جوكاستا: أخشى يا أوديب أن تكون واهمًا. الجماهير حين تغضب لا يمكن التنبؤ بما قد تفعله. أنت زوجي الحبيب الذي بدأت معه حياة سعيدة بعد وفاة لايوس، وإني أخشى عليك، وأخشى على حياتنا وعلى حياة ابنتينا. لقد بدأ المتظاهرون بطلب رفع البلاء، لكن مع الوقت تصاعدت طلباتهم حتى مسَّتك شخصيًّا وأنت حاكم البلاد، فهل تتصور أنهم سيتركوننا نعيش في خيمتنا هذه في سلام؟ قد يهجمون علينا على الرغم من الحرس المحيط بالخيمة وينصبون لنا المشانق في الميادين مثل ملوك فرنسا. دعنا نقبل دعوة ملك الأناضول يا أوديب ونغادر طيبة قبل فوات الأوان.

أشاح أوديب عنها بوجهه وهو يقول: لقد قبلت حكم القضاء وستأتي نبوءة زيوس لتبرئ ساحتي، وسأُنزل العقاب بمن تسبب في هذا البلاء بمجرد أن تنطق النبوءة باسمه. لقد عاهدت الناس على ذلك وأوديب إذا وعد أوفى.

ثم قال لها في حزم: أغلقي هذا الموضوع يا جوكاستا ولا تتحدثي فيه ثانية.

كانت جوكاستا تعرف عناد أوديب الذي كان نقطة قوته، ونقطة ضعفه أيضًا. كانت تعرف أنه لن يحيد عن رأيه مهما حدث، فسكتت.

ومضت لحظة صمت حرجة هدأت بعدها النفوس فالتفت أوديب إلى ابنتيه الجالستين في

صمت إلى جواره ثم قال: كيف حالكما يا ابنتَي؟

ابتسمت أنتيجونا ابتسامة حزينة، وأحاطت هيلينا رقبة أوديب بذراعيها الصغيرتين.

قالت جوكاستا: هيا احكيا لوالدكما ماذا فعلتما اليوم.

قالت أنتيجونا: ليته هو يحكي لنا قصته مع الوحش الذي قتله على أبواب طيبة وكيف صرعه، ويقص علينا كيف دخل طيبة محمولًا على الأعناق وأصبح هو ملك البلاد.

لم يرد أوديب.

قالت جوكاستا: لقد سمعتما هذه القصة مرات ومرات، وهأنا أرى يا أنتيجونا أنكِ تعرفين كل تفاصيلها، فلمَ لا تحكيان أنتما له شيئًا يُرفه عنه قليلًا؟

قالت أنتيجونا: نعم أعرفها، وكل الناس تعرفها، لكني أريد أن أسمعها منه هو.

وردت هيلينا: وأنا أيضًا أريد أن أسمعها. احكِ لنا يا أبي.

رد أوديب بحدة: ليس هناك ما أحكيه.

وسادت لحظة اضطراب فبدت هيلينا الصغيرة على وشك البكاء.

قالت جوكاستا للبنتين: والدكما متوتر الآن، لا تثقلا عليه، اذهبا والعبا في الخارج.

رد أوديب في غضب: لست متوترًا.

فقالت أنتيجونا: إذن احكِ لنا القصة يا أبي.

قال أوديب في هدوء: سأروي لكما القصة. لقد كبرتما وآن الأوان أن تعرفا الحقيقة، وأنت أيضًا يا جوكاستا. فأوديب لا يخشى الحقيقة، بل يكره الزيف والرياء.

وبعد لحظة صمت لم تدم طويلًا اعتدل أوديب في جلسته وقال: فلتعلما يا ابنتَي أنني لم أقتل وحوشًا، تلك قصة اخترعها الناس كما اخترعوا قصة الوحش الرابض على أبواب المدينة. لقد جئت إلى طيبة بعد سنين قضيتها في الغربة فدخلتها من دون عناء فهي بلدي ومسقط رأسي على الرغم من أنني كنت قد عشت حياتي حتى ذلك الوقت بعيدًا عنها في مراعي الجبال. واعلما أنني عند مجيئي لم أقابل وحشًا لأنه لم تكن هناك وحوش على أبواب طيبة، لم أقابل إلا بضعة جنود بؤساء ما إن رأوني حتى هجموا عليَّ بعد أن أصدر لهم قائدهم أمرًا بقتلي، فتصديت لهم وحدي وقتلت قائدهم ففروا من أمامي. تفرقوا هاربين في كل مكان.

قالت أنتيجونا: لكن هذه قصة أخرى غير قصتك التي نعرفها.

قال أوديب: بل هذه هي قصتي.

فسكتت البنتان، وجلست جوكاستا مشدوهة غير فاهمة لما رواه أوديب لتوه.

بعد لحظة واصل أوديب حديثه وكأنه يزيح همًّا ربض طويلًا على صدره: بعد أن انتصرت على الجنود وصرعت قائدهم مكثت أيامًا على أبواب طيبة أتأملها من بعيد، وأتردد في الدخول إليها، وأتساءل ما عساه يحدث لي لو دخلتها؟ هل سيرحب بي أهلها، أم سيحاولون قتلي مثل الجنود الذين صادفتهم على بابها؟ والحقيقة أنه خلبني منظرها من الخارج. فها هي طيبة أمامي، أم البلاد، مدينتي التي طالما حلمت بالعودة إليها بعد سنين عشتها بعيدًا عنها وفي قلبي حلم العودة إليها. لكني هزمت ترددي حين شعرت بأن طيبة تناديني، فاتخذت قراري وتقدمت نحو أبوابها فدخلتها على جوادي كالفرسان، وسألني الناس كيف دخلت والوحش رابض على الباب، قلت لهم مَن كان على بابها لم يكن وحشًا، بل كان كائنًا هزيلًا حاول الاعتداء عليَّ فقتلته، ففوجئت بالناس يحملونني على الأعناق ويعلنون أنني قتلت الوحش الرابض على الأبواب ويتوجهون بي إلى مجلس شيوخ البلاد حيث نودي بي ملكًا على طيبة، ثم جئت إلى القصر وتزوجت جوكاستا الحبيبة زوجة الملك السابق.

سكت أوديب وقد أزاح عن صدره الحمل الذي أثقله طويلًا، فصاحت أنتيجونا: لا، ليست هذه هي القصة التي يروونها لنا في المدرسة.

وصاحت هيلينا: أنا لا أحب هذه القصة.

بينما قالت جوكاستا: ما هذا الذي تقوله يا أوديب؟! كيف تمحو تاريخك المجيد بهذا الشكل؟ لا تدع سأمك من سنوات الحكم يعميك عن الحقيقة.

فقال أوديب بهدوء: بل هذه هي الحقيقة يا جوكاستا، وقد آن الأوان أن أعلنها على الملأ. لن أعيش هذه الأكذوبة التي فرضتموها عليَّ طوال هذه السنين. إني اليوم أنفض عن نفسي هذه القصة الزائفة ولا أتمسك بأيٍّ من أحداثها. هذه هي الحقيقة يا جوكاستا.

صرخت جوكاستا كالملتاعة: يا إلهي! إنك مريض يا أوديب! إنك تهذي!

ثم قالت لأنتيجونا: خذي أختك يا أنتيجونا واخرجا الآن ودعا والدكما يرتاح قليلًا.

قال أوديب وقد علت وجهه ابتسامة رضا: لست مريضًا يا جوكاستا، ولا أهذي. أنتم الذين كنتم تهذون. أما أنا فقد شفيت اليوم من تلك الأكذوبة المريضة التي خلعتموها عليَّ.

ثم نظر إلى ابنتيه وقال: ابقيا معي يا ابنتَي ولا تغادراني فقد افتقدتكما طويلًا.

كان النهار قد انقضى، ومن بعيد سُمع صوت طائر ينوح في الغروب كنذير شؤم في الأفق.

طال غياب بترو وبدأت هيباتيا تقلق على مصير حبيبها. كانت تشعر بعجز مؤلم وبحيرة مخيفة، لكنها لا تعرف ماذا تفعل. كم كانت تود أن تتحدث إليه، لكن أين هو؟ لم يكن أحد يعرف مكانه، ولا متى سيُطلق سراحه. كثيرًا ما سمعت قصصًا عن شباب قُبض عليهم ولم يُفرج عنهم. لم يعودوا إلى أهاليهم، اختفوا. فهل سيكون بترو من هؤلاء؟ هل سيختفي قسريًّا؟ انقبض قلبها وصعدت الدموع إلى عينيها، لكنها طردت تلك الأفكار السوداء من رأسها. سيعود بترو لا ريب. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يُقبض عليه فيها. قُبض عليه من قبل وكان يعود. لكنه تأخر هذه المرة، لماذا؟ لو كانت فقط تعرف أين هو، أو متى سيخرج.

كادت تجن. أخذت تجوب غرفتها جيئة وذهابًا كالحيوان المحبوس في القفص. كانت تمضي بخطوات عصبية حتى تصل إلى الحائط فيردها الحائط إلى الحائط المقابل. ماذا تفعل؟ تريد أن تتواصل مع بترو بأي شكل. جلست إلى المكتب وقررت أن تكتب له خطابًا. لم تكن تعرف له عنوانًا، ولم تكن تعرف ماذا ستفعل بالخطاب، لكن كان يجب أن تطلق ما بداخلها حتى لا تنفجر.

حبيبي وتوأم روحي بترو

قد تقرأ هذا الخطاب في يوم ما، وقد لا تقرأه. فأنت بعيد عني ولا أعرف مكانك، ولا أعرف متى سيُطلق سراحك، لكن عندي أمل لا يتزعزع بأن القدر اختارنا لنكون رمزًا لكل ما هو خير في هذا الوطن. ستظل يدي في يدك وسنمضي معًا إلى المستقبل الذي نحلم به لنا ولطيبة الحبيبة، أم البلاد التي تستحق المستقبل المشرق الذي نعمل من أجله، والذي من أجله خرجنا مع الجماهير إلى الشوارع والميادين بعد أن عم البلاء وانتشر الطاعون بين الناس، في الوقت الذي انصرف فيه النظام الحاكم عن مصلحة البلاد وأهمل مرافقها لسنين طالت أكثر مما ينبغي.

أشعر بالغربة يا بترو وأنت بعيد عني. أشعر بالوحدة وأشعر بالضعف. كنت أستمد قوتي من قوتك، وأستمد تفاؤلي من تصميمك الذي لا يلين. لكنك الآن بعيد عني، وقد طال غيابك هذه المرة، وأخشى أن يصيبني الوهن في غيابك.

تذكر حين تُوفِّي والدي كيف كدت أنهار لولا وقوفك إلى جانبي. لقد صرت الآن أنت أبي وأخي وحبيبي. وقد شاهدتك وأنت تمُر بالمِحن والصدمات لكنك كنت صامدًا كالصخر. أذكر كيف صُدمت حين عيّن ابن العميد بدلًا منك على الرغم من أن درجاتك كانت أعلى من درجاته. لكنك لم تنكسر. حزنت نعم، وحزنت أنا معك، لكنك لم تيأس. أخذت الكاميرا ونزلت إلى الشارع تصور ثورة طيبة التي ساهمت في قيامها، وكأنك مُكَلَّف بعمل فيلم تسجيلي عن أحداثها. كنت تقول إن فيلمك سيكون

الوثيقة التاريخية للثورة منذ بدايتها وحتى انتصارها الذي لا ريب فيه. وتذكر كيف انبهر أصدقاؤنا عندما عرضت عليهم بعض ما صوَّرته، وكيف حدثوا ليون مدير استوديو النجمة الزرقاء كي يتيح لك فرصة عمل المونتاج في الاستوديو. وتذكر يوم ذهبنا معًا إلى الاستوديو لتعرض عينة مما صوَّرته، وكيف انبهر هو الآخر بما شاهده. لقد كان في الاستوديو فريق تصوير إحدى القنوات التلفزيونية الأجنبية، وقد تركوا عملهم الذي جاءوا لإتمامه وجلسوا يشاهدون لقطاتك النادرة، وأعجبوا كثيرًا بدقتك في اختيار المشاهد، وبرقي المستوى الفني للقطات وجمالياتها. يومها كنت فخورة بك يا بترو، ليس فقط لموهبتك الفنية وقدراتك التقنية، فهذه لم تكن جديدة عليَّ، ولكني كنت فخورة بأنك لم تنكسر حين اغتُصب حقك في التعيين، بل صمدت وبدأت عملك السينمائي وحدك وبلا مساعدة من أحد، وقد أصبح عملك الآن يبهر من يراه. بالمناسبة، منذ أيام تظاهر الطلبة ضد عميد المعهد واتهموه بالفساد وطالبوا بتنحيته، واليوم علمت أنه يخضع للتحقيق.

حبيبي بترو

إن ثقتي بك لا تغيب، لكن ثقتي بنفسي هي التي أصبحت تحيطها الغيوم. أرجوك أن تعود، فمن دونك أخشى ألا أستطيع مواصلة الطريق. لقد بدأت أشعر بأن حماسي للنزول إلى الشارع أخذ يفتر قليلًا، ولولا أنني أحرص على أن أصور لك ما يحدث لربما ترددت في النزول...

قبل أن تكمل هيباتيا خطابها رن جرس البيت فتركت الخطاب وفتحت الباب. لم تصدق عينيها. وجدت بترو واقفًا أمامها بشحمه ولحمه فصرخت ولم تشعر بنفسها. راحت تبكي بصوت عالٍ خشيت أن يسمعه الجيران. أخذها بترو بين ذراعيه وقبَّلها في كل مكان.

ظلت هيباتيا تردد: خشيت ألا تعود. خشيت ألا تعود يا بترو.

أخذ بترو يُهدئ من روعها فسألته في لهفة: متى خرجت؟

قال: الآن فقط. خرجت من الحبس على بيتك مباشرة.

أخذت هيباتيا تتفحصه وكأنها تريد أن تتأكد أنه سليم لم يُصب بسوء.

قال لها: ماذا تفعلين في البيت؟ الجماهير في الشوارع، هيا نخرج بسرعة إلى الساحة.

قالت: انتظر لحظة.

دخلت بسرعة إلى غرفتها وعادت بالكاميرا، فعلقتها حول رقبته. وضع يده في يدها كما كانا يفعلان دائمًا وانطلقا إلى الطريق.

قال: كان يؤلمني في الحبس عدم قدرتي على مشاركة الجماهير ثورتها.

أشارت هيباتيا إلى الكاميرا وهي تقول: إن كل ما فاتك منها ستجده هنا.

ابتسم وقَبَّل يدها.

شعرت هيباتيا بأن الغيوم التي أحاطت بحياتها قد انقشعت فجأة، وأن الشمس عادت تشرق من جديد. أخذت تنظر إلى بترو وهي ما زالت غير مصدقة أنه معها.

قال لها: افتقدتك.

قالت: وأنا افتقدت نفسي.

وما هي إلا لحظات حتى ضاعا وسط الجماهير. ومثلما تحمل تيارات البحر الأسماك وتمضي بها في طريق مرسوم، حملهما طوفان البشر عبر الطرقات إلى الساحة الكبرى حيث معبد زيوس العظيم.

جاء اليوم المُنتظَر الذي ستُعلن فيه النبوءة بمعبد زيوس إله الآلهة. كان يومًا مكفهرًا من أيام الخماسين حيث الريح الساخنة المُحمَّلة بالرمال تلف طيبة ككفن من الكتان المصفر، وتعيق فيها الرؤية. خرج أهل طيبة عن بكرة أبيهم إلى الشوارع متجهين إلى معبد زيوس في الساحة الكبرى للمدينة. أمسكت هيباتيا بذراع بترو حتى لا يفقد أحدهما الآخر وسط زحام ذلك اليوم المشهود.

حين وصلا إلى الساحة لم يكن بها موضع قدم. أخذ بترو يصور ذلك المشهد المهيب بكل دقة. كانت حركة الجماهير تعلو وتهبط كموجات البحر من دون توقف. في بعض الأحيان كان بترو يُفاجأ بوجه يملأ عدسته ثم يبتعد. وفي أحيان أخرى كانت صيحات الجماهير المطالبة بالقصاص تصم الآذان فتُسبب تشوهًا في الصوت المسجل، لكن بترو لم يكن ليعالجه بل سيتركه كما هو تأكيدًا للتلقائية التي أراد لها أن تكون عنوان الفيلم، فقد كان بترو قد حدد لنفسه أسلوبًا فنيًّا خاصًّا يميل إلى الطبيعية ويركز على عفوية الحدث وطزاجته، لذا أراد أن يحتفظ بتلك التفاصيل كما هي من دون تعديل أو تجميل، حيث كان يرى في مثل هذا التجميل تزييفًا لا يتفق مع الأسلوب الذي اختاره لعمله.

كان بترو بين الحين والآخر يدير الكاميرا نحو وجه حبيبته من دون أن تلحظ، فيلتقط تعبيراتها وهي تهتف وسط الجماهير الغاضبة رافعة عَلَم طيبة في السماء، وكأنها ماريان فتاة الثورة الفرنسية التي تقود جماهير الثورة في لوحة فنان فرنسا الكبير أوجين ديلاكروا التي تزين متحف اللوفر، وكما خلَّد ديلاكروا ماريان بفرشاته سيخلد بترو هيباتيا بعدسته. كانت هيباتيا تهتف وهي تلوح بالعَلَم في يدها فتهتف وراءها الجماهير. صوَّر بترو جميع فئات الشعب الذين تجمعوا في الساحة؛ الشباب والشيوخ، والرجال والنساء، لكنه كان يتوقف عند الشباب الذين كانوا، مثل هيباتيا، يقودون حركة الجماهير ويوجهون هتافاتها. آلاف مؤلفة من البشر امتلأت بها لقطات الفيلم الذي صوره بترو بعدسته.

كان بترو سعيدًا بما أنجزه منذ بداية الثورة، لكنه في بعض الأحيان كان يسأل نفسه إن كان فيلمه سيرى النور في يوم ما، لكن هيباتيا كانت تشجعه على المواصلة، وتؤكد له أن ما يقوم به هو عمل فريد لأنه التسجيل الحي لثورة الشعب، وسيكون هناك من يقدره. كان حديثها يلقى صدى في نفسه ويشجعه على الاستمرار. وكان تصوير فيلم الثورة يعكس تمسكه بحلمه في أن يصبح مخرجًا سينمائيًّا يقدم مفهومًا جديدًا للأفلام التسجيلية، كما فعل مايكل مور بأفلامه التسجيلية التي فضح بها سياسة جورج بوش الابن وغزوه للعراق، وحقق أعلى الإيرادات في تاريخ السينما التسجيلية. كان يريد أن يطور مفهوم الفيلم التسجيلي في طيبة بحيث يساهم في

إحداث تغيير في المجتمع.

بعد وصولهم إلى الساحة بقليل ظهر في الأفق موكب كريون رئيس جيوش طيبة، وسط رياح الخماسين وأتربتها التي زادت عليها الأتربة المتصاعدة من حواف خيل الموكب. كادت الخيل تدهس الجماهير التي اكتظت بها الساحة، لولا أن أفسح لها الناس طريقًا وسط صراخ النساء وهرولة الرجال من أمام الموكب.

خرج كبير الكهنة من المعبد ونزل الدرج الكبير ليستقبل كريون، ولدى وصوله حيَّاه التحية الواجبة لملك البلاد، وانحنى أمامه قائلًا: أيا كريون العظيم، يا من صرت الآن حاكم البلاد، مرحبًا بك في معبد زيوس المقدس.

رد عليه كريون وهو يرمقه بنظرة ثاقبة: إذا كنت قد صرت الآن حاكم طيبة فإنك اليوم في موضع قاضي قضاتها، وعليك يا كبير الكهنة أن تزن كلماتك داخل المعبد بميزان الذهب، فاللحظات المقبلة ستكتب تاريخ طيبة وتحدد مصائر أبنائها.

رد كبير الكهنة وقد أنهى انحناءاته ورفع رأسه فصار وجهه في مواجهة وجه كريون: اعلم يا كريون أنني لا كلمة لي أمام قضاء كبير الآلهة، الكلمة هي كلمة السماء، والنبوءة التي سينطق بها زيوس العظيم سنسمعها معًا، فتفضل معي إلى داخل المعبد لتكون شاهدًا عليها.

وصعد كبير الكهنة بكريون الدرج ثم دلفا إلى داخل المعبد المقدس.

كان المعبد غائمًا وسط الأبخرة ذات الروائح النفاذة المقبلة من عوالم أخرى. في مكان مرتفع بوسط المعبد تبدَّى عرش زيوس في كامل أبهته وجلاله. جلس تمثال زيوس المهيب على العرش المصنوع من الذهب والعاج والأبانوس وقد رُصعت جنباته بالأحجار الكريمة، وتُوِّج رأس زيوس بإكليل من الغار المصنوع من المعادن النفيسة، وفي يده التمع الصولجان المقدس حاملًا رأس النسر المصنوع من الذهب والفضة، أمَّا عينا النسر المخيفتان فكانتا من حجر الياقوت الداكن في لون الدم، وتحت قدمي زيوس بدا مذبح القرابين المتعطش للدماء، بينما أحاطت بالعرش الضخم تماثيل لبقية الآلهة بنقوشها البارزة.

وقف كبير الكهنة أمام عرش زيوس خاشعًا وإلى جانبه كريون، وعلى جانبَي المذبح اصطف الكهنة، سبعة كهان على كل جانب يحملون الأبخرة المقدسة والتي غلفت جو المعبد بغلالة رقيقة زادت من أثيرية المشهد. أحضر الكهنة القربان المقدس ونحروه عند قدمي زيوس، وتدفقت الدماء فوق المذبح، فاستجمع كبير الكهنة قوته ورفع صوته: أيتها الروح المقدسة، يا كبير الآلهة، أيا زيوس العظيم، لك المجد والقوة والعنفوان، ولك الطاعة والخشوع من أهل طيبة.

ارتجت جنبات المعبد إيذانًا بتجلي الروح المقدسة، وصدع صوت هادر ليس لرجل ولا

لامرأة. صوت من عالم آخر: هأنذا زيوس، ملك الملوك، حاكم مخلوقات الأرض والسماء، قاهر الجبابرة، العواصف هي زفرات غضبي، والبرق هو زئير صوتي، أنطلق وسط النجوم، أزرع السحب، أقتلع الجبال، أسوق أمامي المخلوقات جميعًا.

مد كبير الكهنة ذراعيه إلى حيث عرش زيوس وقال: أيا زيوس العظيم، أهل طيبة يتضرعون إليك يا ملك الملوك، دلنا بحكمتك الإلهية على سبيل الخلاص من البلاء الذي حل بالبلاد، أعنَّا على التخلص من الطاعون الذي يحصد كل يوم أرواح العشرات من أهلنا.

ارتج المعبد من جديد ونطق الصوت المهيب: أبولو هو إله الشمس والموسيقى، وهو الذي جعلته إلهًا للتنبؤ. هو يتنبأ بالمستقبل، لكن زيوس وحده القادر على تغيير المستقبل.

صاح كبير الكهنة: جئنا نطلب قدرتك أيا إله الآلهة. فلتغير لنا المستقبل الكئيب الذي ينتظر طيبة.

قال الصوت: الغمة لن تزول واللعنة لن تُرفع إلا بعقاب المذنب.

ارتج المعبد بشدة، وترنحت تماثيل الآلهة المصطفة على جنباته، بينما انطلقت نبوءة زيوس الرهيبة بصوت مخيف: تزلزلت أعمدة السماء، وزمجرت الريح، بسبب غضب الآلهة يوم قتل أباه وتزوج أمه، فأنزلنا عليه اللعنة، وعلى قومه وعلى وطنه البلاء.

وسكت الصوت المهيب، فأخذ كريون ينظر إلى كبير الكهنة مستفسرًا، لكنه لم يجد في وجهه الجواب، فسأله: ما معنى هذا؟

لم يجب كبير الكهنة.

صرخ كريون: من الذي أنزلتم عليه اللعنة؟ من الذي تسبب في البلاء الذي حل بطيبة؟

لكن الصوت لم يجب.

استجمع كبير الكهنة قوته من جديد وتوجه إلى عرش زيوس: أيا زيوس العظيم، يا إله الآلهة، من الذي قتل أباه وتزوج أمه؟ من الذي اقترف تلك الفعلة الشنعاء؟ أهو من أهل طيبة؟

ارتج المعبد من جديد وسُمع صوت صفير ريح مفاجئة هبت داخل المعبد، ونطق الصوت بكلمة واحدة: أوديب!

حمل الصدى الكلمة كأنها كرة من نار لا يستطيع أن يمسكها أحد، فأخذت الكلمة تتردد بين جنبات المعبد يدفع بها كل حائط إلى الحائط المقابل: أوديب. أوديب. أوديب.

ثم فجأة حل بالمعبد صمت كصمت القبور، وتلاشت الأبخرة، فَخَرَّ الكهنة عند قدمَي زيوس خاشعين.

دخل كريون على أوديب مسرعًا وعلى وجهه علامات الغضب. كان أوديب جالسًا مع جوكاستا في الخيمة، فصاح فيه أوديب: ماذا دهاك يا كريون حتى تدخل عليَّ هكذا من دون استئذان؟ إذا كنت قد تركت المُلْك فأنا ما زلت أوديب الذي يهابه الجميع ولا يهاب أحدًا. وهذه الخيمة هي بيتي فكيف تقتحمها هكذا؟

رد عليه كريون: الأمر خطير يا أوديب، فدعك من المراسم الآن واستمع إليَّ.

فسأله أوديب: ماذا هناك؟ هل قامت الحرب؟ هل هجمت علينا إسبرطة؟

قال كريون: ليتهم هجموا علينا فقضينا عليهم جميعًا. لا يا أوديب الأمر أخطر من الحرب.

قال أوديب: ماذا هناك إذن؟

قال كريون: جئت أخبرك بنبوءة زيوس.

فسأله أوديب: ماذا قالت النبوءة؟ هل أعلنت سبب الطاعون الذي حل بالبلاد؟ هل نطقت باسم من تسبب في البلاء؟

رد كريون بوجه صارم: نعم نطقت باسمه.

قال أوديب: هل هو من أهل طيبة؟

فرد عليه كريون: نعم يا أوديب.

فقال أوديب: كائنًا من كان هذا الذي جلب على طيبة غضب الآلهة فيجب أن يلقى جزاءه.

قال كريون: لقد أعلنت على الشعب أنك قبلت اللجوء إلى نبوءة المعبد المقدس، وعليك الآن أن تلتزم بما نطقت به النبوءة. عليك أن تقبل إنزال العقاب بالمذنب، فإن لم يُعاقب المسؤول عما أصابنا فاللعنة لن تُرفع عن طيبة.

قال أوديب: إن أوديب إذا وعد أوفى، فلا داعي لهذا الحديث الأجوف، وقل لي اسم المذنب. من هو ذلك المجرم؟

رد كريون وقد أخفض صوته: أوديب.

فصاح أوديب: ماذا تقول يا كريون؟ ارفع صوتك وكرر ما قلت.

قال كريون وقد رفع صوته فيما يشبه التحدي: قلت أوديب. النبوءة قالت إن أوديب هو الذي جلب الطاعون إلى طيبة.

هبت جوكاستا من مقعدها وتوجهت إلى شقيقها وهي تصيح: ماذا تقول يا كريون؟

قال: أقول إن النبوءة قالت إن أوديب هو المتسبب فيما نحن فيه.

صرخت فيه جوكاستا: هل جننت يا كريون؟

وصاح أوديب: بل هي مؤامرة للاستيلاء على الحكم. الأمر اتضح الآن وضوح الشمس. لقد كنت تطمع في العرش منذ زمن، وطالما حذروني منك، لكني لم أكن ألقي لذلك بالًا. المؤامرة انكشفت الآن. تريد اغتصاب العرش.

قال كريون: ماذا تقول يا أوديب؟ هل نسيت أنني القائم على شؤون المملكة بناء على تنازلك عن العرش؟ ثم إن وضعي هذا مؤقت إلى حين إجراء انتخابات جديدة تحدد مصير البلاد. عندئذ سيكون هناك حُكْم جديد في طيبة. فأين هي المؤامرة؟

قال أوديب وقد ملأ صوته الغضب: لا لم أنسَ شيئًا، لكن هذا الوضع لا يبدو أنه يكفيك يا كريون. تريد أن تستولي على الحُكْم وتظل ملكًا متوجًا على عرش طيبة.

قالت جوكاستا: ما هذا الهراء الذي قلت يا كريون؟ لن يصدق أحد أن أوديب ملك البلاد هو الذي أتى بالطاعون لطيبة.

قال كريون: هذا ما نطقت به النبوءة، وهي لم تعد سرًّا. سمعها معي كبير الكهنة، وسمعها كهنة المعبد، وانتشرت بين الناس.

قال أوديب: إذن فالكهنة ضالعون معك في المؤامرة.

قال كريون: تلك هي النبوءة.

ردت جوكاستا بسرعة: ذلك لغز وليس نبوءة. كيف أتى أوديب بالطاعون وتسبب في ذلك البلاء؟ ألم تفصح النبوءة؟

قال كريون: بل أفصحت.

فسأله أوديب: ماذا قالت؟

قال كريون: قالت إن أوديب قتل والده وتزوج أمه، وبذلك أثار غضب الآلهة فحلت اللعنة.

قال أوديب: ماذا تقول أيها المجنون؟ رائحة الخيانة تفوح من كلماتك الآثمة، إني لم أتزوج في حياتي إلا امرأة واحدة هي شقيقتك جوكاستا أم بناتي أنتيجونا وهيلينا، كما أني لم أقتل والدي. والدي كان راعي أغنام مسكينًا مات وسط أغنامه وبين يدَي هاتين. وقد دفنته بنفسي في قبر ليس ببعيد عن هنا، فكفى هذا الهذيان. ستنال يا كريون جزاء خيانتك. لقد نسيت نفسك ونسيت من أنا. سأنتقم منكم جميعًا أيها الخونة. من انتزع الحق من قلبه سيُنتزع قلبه من صدره. ومن أشاحوا بوجوههم عن مليكهم ستُسلخ وجوههم. ومن انقلبوا عليه فسيرون إلى أي منقلب ينقلبون. أنا أوديب البطل المغوار، ملك الملوك.

قال كريون: إن نبوءة زيوس المقدسة لا تنطق بالألغاز يا أوديب، وإنما تنطق بالعدل وبالحق.

قالت جوكاستا: أي حق هذا يا كريون الذي تقول؟ إني لا أفهم شيئًا.

قال كريون: إن معي من سيجلي لك الحقيقة.

قالت جوكاستا: من هذا؟

فجأة حدثت جلبة خارج الخيمة وسُمع صوت يصيح: اتركوني! دعوني أمُرُّ!

وظهر بباب الخيمة أحد أفراد الحرس المصاحب لكريون، وقبل أن يتكلم قال له كريون: دعوه يدخل.

دخل تيريسياس الخيمة بثيابه المهلهلة وشعره الأشعث، فصاح أوديب: ما هذا؟ هل أصبح بيتي ساحة شعبية يدخلها مَن يشاء؟ ما الذي جاء بك الآن أيها العجوز الدجال، يا مَن ترى بعينيك المظلمتين ما لا يراه المبصرون.

قال كريون لتيريسياس: تكلم يا تيريسياس.

قال تيريسياس: حذارِ يا أوديب! لا تصارع الآلهة وانصع لحكم القضاء والقدر.

فصعد الدم إلى رأس أوديب وصاح في تيريسياس: إذن فأنت ضالع في المؤامرة أيضًا أيها العجوز الأعمى. بماذا وعدوك؟ هل ستصبح وزيرًا وقد صارت إحدى قدميك في القبر؟

صاحت جوكاستا: أيتها الآلهة رحمة بنا!

فرد تيريسياس: الآلهة تطلب القصاص يا جوكاستا. لقد ارتكب أوديب إثمًا كبيرًا في حق البلاد، في حق الآلهة وفي حق السماء. لقد قتل والده وتزوج أمه.

فضحك أوديب ضحكة هازئة وهو يقول: كنت على وشك أن أقول لك انظر أمامك جيدًا، فهذه زوجتي وأم بناتي التي شاركتني الحُكْم منذ تُوجت ملكًا. هي جوكاستا شقيقة كريون وأرملة لايوس وليست أمي أيها الأعمى، لكنك بالطبع لا ترى شيئًا ولا تعرف شيئًا.

قال تيريسياس: بل أعرف الكثير يا أوديب.

قال أوديب وما زالت التعبيرات الهازئة تُرتسم على وجهه: وماذا تعرف أيها الدجال؟

قال العجوز: أعرف أنني منذ سنوات بعيدة أخبرت الملك الذي سبقك على العرش، لايوس العظيم، بنبوءة أخرى من تلك النبوءات المقدسة التي لا راد لها، كان جميع أهل طيبة يعرفونها لكن أحدًا لم يجرؤ على إخبار لايوس بها، وهي أن ابنًا من صلبه سيقتله ويتزوج امرأته.

واعتلى وجه جوكاستا الشحوب وكأن الدم قد هرب من أوردتها، وقالت بصوت الأم المكلومة:

هذا تاريخ قديم فلماذا تستدعيه الآن؟

لكن تيريسياس واصل حديثه: لا بد أنك تذكرين ذلك جيدًا يا جوكاستا؟ ألم يحدث أن أخبرتكما بتلك النبوءة؟

قالت بصوت مرتعش: نعم ولكن...

ولم تكمل.

واصل العجوز: لذلك حين رُزقت يا جوكاستا بمولود ذكر من صلب لايوس أمر زوجك الملك بقتله، لا بد أنك تذكرين هذا أيضًا.

فلم ترد.

قال: ولا بد أنكِ تذكرين أيضًا أن قلبكِ لم يطاوعكِ على قتل الطفل، وأنك طلبتِ مني أن أعطيه لمن يرعاه بعيدًا عن طيبة.

قالت جوكاستا: لقد مضت على ذلك سنوات طويلة، فلمَ تنكأ الجراح؟

صاح تيريسياس بأعلى صوته: هذا الولد يا جوكاستا هو أوديب زوجك وابنك.

هجمت جوكاستا على تيريسياس وراحت تضربه بكلتا يديها وهي تصيح: كاذب دجال! دعهم يُخرسوا هذا العجوز المخرف يا أوديب. دعهم يخرسوه.

خلص العجوز نفسه بصعوبة من بين يدَي جوكاستا، فلاحقه كريون بالسؤال: أفصح عما قلت يا رجل.

أصلح تيريسياس من هندامه وهو يقول: لقد أعطيت الطفل لراعي أغنام من خارج المدينة، لا بلد له ولا موطن، فاتخذه ولدًا يصاحبه في ترحاله في الوديان والجبال.

صاحت جوكاستا: لا، لا، لا. ثم سقطت مغشيًّا عليها.

صمت أوديب ولم ينطق ببنت شفة، وهرع كريون إلى أخته محاولًا إفاقتها لكنه لم يفلح، فحملها وخرج بها إلى حيث يمكن إسعافها، بينما حدَّث أوديب نفسه قائلًا: ألف رحمة على ذلك الراعي الطيب، الذي رباني ولم يرضَ لي أن أصبح راعي أغنام مثله، فجعلني فارسًا باسلًا أمتطي الخيل ولا أهاب أحدًا.

فقال له تيريسياس: أعرفت الآن الحقيقة يا أوديب؟

فصاح فيه أوديب: لا، روايتك مُختلَقة أيها العجوز، فأنا لم أقتل والدي هذا الذي لم أرَه ولم أعرفه.

فقال العجوز: قتلته من دون أن تعرفه.

قال أوديب في تحدٍّ: أين؟ ومتى؟

فصمت تيريسياس ولم يرد.

فقال أوديب منتصرًا: ها قد صمتَّ أيها الدجال لأن قصتك عرجاء. أرني كيف قتلت والدي وإلا سقطت قصتك كلها وثبت ضلوعك في المؤامرة التي تكشفت أمامي اليوم.

في تلك اللحظة عاد كريون من الخارج فقال له أوديب: قل لهذا العجوز المخرف كيف مات لايوس. قل له كيف قتله قطاع الطرق.

قال كريون: لقد وُجد لايوس مقتولًا عند أبواب المدينة كما يعرف الناس جميعًا، وهرب الجنود الذين كانوا معه ولم يُعثر على أيٍّ منهم، كما لم يُعثر على من قتلوه. كانوا لصوصًا وقطاع طرق على ما يبدو، وقد هربوا بلا عودة. وقد غطت فرحة قضائك على الوحش يا أوديب على جهود تتبع القتلة. لكني سآمر أن يبدأ من الغد تحقيق في جميع أنحاء البلاد حول هذا الموضوع لنعرف كيف مات لايوس ومَن الذي قتله، فقد آن الأوان أن تنضبط أمور هذه المملكة.

كان استوديو النجمة الزرقاء يقع في منطقة نائية من المدينة تحيطها الأشجار، وعلى باب الاستوديو وقفت شجرتان باسقتان من أشجار الكافور الليموني العملاقة البالغ طولها ما لا يقل عن ثلاثين مترًا، واللتان صمدتا أمام الزحف العمراني الذي اقتلع الكثير من مثيلاتهما. كانت ساقا الشجرتين بيضاوين في لون القمر الذي بدا بدرًا مكتملًا في تلك الليلة. مرت هيباتيا بيدها على إحدى الشجرتين فوجدتها ملساء ناعمة.

قالت لبترو: انظر يا بترو كم هما جميلتان هاتان الشجرتان! بمجرد رؤيتهما يغمرني شعور بالطمأنينة والأمان. انظر كم هما رشيقتان!

فقال: وقويتان أيضًا، فشجر الكافور راسخ في الأرض يعيش مائة وخمسين عامًا، والكافور الليموني بالذات تزيد عليه رائحته الليمونية الزكية.

قالت: إنهما مثلنا، فحبنا سيبقى محتفظًا دائمًا بجماله وبعطره الأخاذ.

طوق بترو خصر هيباتيا بذراعيه وقَبَّلها في جبينها، ثم أخذ يدها في يده ودلفا إلى داخل المبنى، وبقيت الشجرتان على الباب كحارسين كُلِّفا بحراستهما.

كان ليون مدير الاستوديو رجلًا عصاميًّا في نحو الستين من عمره، بنى استوديو النجمة الزرقاء بنفسه حتى صار من أحدث الاستوديوهات الموجودة في طيبة وأكثرها تقدمًا، وكان قريبًا من الشباب يشاركهم النزول إلى الساحة الكبرى كلما استطاع.

استقبل ليون بترو وهيباتيا بكثير من الترحاب. كان لا يزال يتذكر تلك اللقطات الفريدة التي كان قد أطلعه بترو عليها، وقد أُعجب وقتها بقدرة بترو على الاحتفاظ بحيوية الأحداث التي صورها، كما لفت نظره تميز مستواها الفني، وكان كريمًا جدًّا مع بترو حيث عرض عليه أن يستخدم الاستوديو لإعداد فيلمه بعد اكتمال تصويره رافضًا أن يتلقى أجرًا عن الساعات التي سيستغرقها تجهيز الفيلم. وقد وعد ليون أن يضع كامل إمكانيات الاستوديو تحت تصرف بترو، على أن يستخدمه خارج أوقات العمل حتى لا يتداخل ذلك مع جدول الاستوديو المزدحم دائمًا.

أمضى بترو تلك الليلة بكاملها في الاستوديو يراجع مع هيباتيا المادة التي صوَّرها، فيحذف منها ما يراه زائدًا ويعمل المونتاج المطلوب للمقاطع الأخرى. كانت مادة ثرية تلك التي تجمعت لديه على مدى الفترة الماضية منذ بداية اندلاع الثورة. وبعد عدة ساعات من المونتاج بدأت تتضح أمام بترو معالم فيلم تسجيلي متكامل تتتابع أحداثه من أول نزول المتظاهرين إلى الشارع وحتى الآن. كانوا في البداية مجموعة قليلة من الشباب الثائرين على تردي حال البلاد والبلاء الذي حل بها، ثم صَوَّر الفيلم كيف بدأ أهل طيبة ينضمون لهم فتحولت المظاهرات

الشبابية إلى ثورة شاملة تملأ الشوارع والميادين. عندئذ بدأ إيقاع الفيلم يتسارع عبر لقطات متلاحقة وصولًا إلى الساحة الكبرى التي اكتظت بالجماهير والتي صَوَّرها بترو بين الناس، ومن فوق أسطح الأبنية، فأظهر ضخامة حجمها الذي لم تعرفه طيبة من قبل. وتخللت تلك المشاهد صيحات تيريسياس العجوز في الأسواق وهتافات الجماهير الغاضبة في الشوارع والميادين. أما ذروة الفيلم فكانت مشهد المعبد المقدس المطل على الساحة الكبرى، وخروج كبير الكهنة إلى الناس يعلن عليهم كلمات النبوءة بعد انسحاب كريون وموكبه، وانقشاع الأتربة التي خلفتها خيله، والتي ملأت ضربات حوافرها عدة لقطات مقربة في الفيلم، فقد تراوحت لقطات الفيلم ما بين المشاهد الجماعية البعيدة التي صورت كتل الجماهير، واللقطات المقربة التي صورت نظرات المعاناة وتعبيرات الغضب على وجوه المواطنين.

كان ليون ينوي أن يترك الاستوديو لبترو في تلك الليلة ويعود إلى منزله لعلمه أن المونتاج سيستغرق وقتًا طويلًا، لكنه لم يستطع التحرك من أمام شاشة العرض، فجلس يتابع العمل سعيدًا بما يشاهده. كان ليون يقيم وحده، بلا زوجة ولا أبناء، وقد فضَّل صحبة بترو وهيباتيا على العودة إلى بيته الموحش، فشدت انتباهه جودة لقطات الفيلم التي جلس يتابعها إلى أن انتهى بترو قرابة الفجر من إعداد الفيلم في صورته النهائية. وأدرك مدير الاستوديو أنه أمام فيلم وثائقي نادر عن ثورة طيبة، يقوم على بناء فني متميز يتصاعد إيقاعه بالتدريج حتى يصل إلى الذروة الدرامية بصدور النبوءة وإدانة أوديب باعتباره المتسبب في البلاء الذي حل بالبلاد.

هنأ المدير بترو على عمله المميز والذي قال إنه يذكره بالأفلام التسجيلية العظيمة لكبار المخرجين مثل جوشوا أوبنهايمر وستيف جيمس، ثم سأله ماذا سيفعل بهذا الفيلم وأين سيعرضه.

فقال بترو: لا أعرف. لقد صنعت هذا الفيلم لأني شعرت بأن هذا واجبي كسينمائي. لم يكن من الممكن أن أترك هذا الحدث التاريخي يمر من دون أن أصوره، ولولا كرمك بإعفائي من إيجار الاستوديو ما استطعت إعداده للعرض.

كان ليون قد تصور حين عَرَض عليه بترو قبل ذلك بعض لقطات الفيلم أنه يصورها لإحدى القنوات التلفزيونية، بسبب جودتها العالية. لكن بترو نفى له ذلك، وقال له إنه يصوره لنفسه.

يومها قال له: حين تنتهي من تصوير الفيلم يسعدني أن تقوم بإعداده عندنا هنا في الاستوديو، فعندنا أحدث آلات المونتاج، وتنقية الصوت، والمؤثرات الخاصة؛ الصوتية والبصرية.

فشكره بترو وقال: قد لا أحتاج إلا لآلات المونتاج، فأنا أريد أن أصور الثورة كما حدثت في الواقع من دون التدخل في مشاهدها بأي مؤثرات موسيقية أو صوتية أو غير ذلك.

فازداد اهتمام ليون بالفيلم وتمنى لبترو التوفيق قائلًا: أنا في شوق إلى رؤية عملك في شكله النهائي.

حين انتهى مدير الاستوديو في تلك الليلة من مشاهدة الفيلم قال لبترو: هذا فيلم جدير بالمشاركة في المهرجانات الدولية.

فشكره بترو على تلك الشهادة التي قال إنه يعتز بها.

وقال مدير الاستوديو: إن بعض الأفلام التي حققت مشاركة ناجحة في المهرجانات أُعدَّت في هذا الاستوديو.

ثم سأل بترو إن كانت له أي صلة بالقائمين على مهرجانات الأفلام التسجيلية في الخارج. فنفى بترو ذلك. ربت ليون على كتف بترو في حنان أبوي وقال له: إن لم يكن لديك مانع فاترك لي هذه المهمة وسأقوم باللازم.

رد عليه بترو مبتسمًا: لقد رفضت تقاضي إيجار الساعات الطويلة التي قضيناها بالاستوديو، وبذلك ساهمت في تكلفة إنتاج الفيلم، ولك حق تسويقه كما تشاء.

حين خرج بترو وهيباتيا من الاستوديو كانت شمس صباح جديد قد أشرقت. لفحتهما الرائحة الليمونية النفاذة المنبعثة من شجرتي الكافور فانتشيا. سمعت هيباتيا أصوات العصافير وقد بدأت تزقزق بين أفرع الأشجار إيذانًا ببدء يوم جديد. تعلقت بذراع بترو ومضيا في طريقهما يتعقبهما عطر الشجرتين الفواح.

كانت صحة أوديب قد تدهورت كثيرًا منذ ترك الحُكم وانتقل إلى تلك الخيمة العسكرية تحت الحراسة المشددة. كان يعرف أن الحراسة التي خصصها له كريون، وكانت تحيط بكل شبر من الخيمة، بقدر ما كانت لحمايته فهي أيضًا لمنعه من مغادرة الخيمة. لم يكن ينقصه شيء في تلك الخيمة الفاخرة، لكنها كانت سجنًا منيعًا على الرغم من اتساعها وتعدد مقاطعها.

في إحدى الليالي أحس أوديب بالاختناق ولم يستطع التنفس. أراد أن يخرج إلى الهواء الطلق، لكنه مُنِع بشكل قاطع، وفي ليلة أخرى شعر بألم شديد في صدره، فاستُدعي الأطباء الذين حضروا على وجه السرعة وفحصوه ووصفوا له شتى صنوف الأدوية، لكن صحته استمرت في التدهور بشكل ملحوظ. لم يعد يغادر غرفة نومه بالخيمة، ونادرًا ما أصبح ينهض من مرقده.

كان أوديب ممددًا في فراشه يتأمل بقعة صغيرة من السماء بدت من خلال الفتحة الصغيرة المحيطة بالعمود الأوسط للخيمة. لم يزد ما رآه من السماء عن حجم كف يده، وحين كان يرفع ذراعه إلى أعلى كانت كفه المبسوطة تخفي تلك البقعة الزرقاء. تذكر كيف كان يمرح في صباه تحت قبة السماء التي كانت ممتدة بلا نهاية، وتذكر والده، أو من كان يظنه والده. كم كان حنونًا راعي الأغنام هذا الذي ربَّاه وأغدق عليه كل الحنان الأبوي. قد كان أحنَّ عليه من والده الفعلي، ذلك الذي علم متأخرًا أنه أمر بقتله وهو طفل، كما يقولون. كان يساوره الشك في صحة تلك الرواية التي لم يسمع بها من قبل. أو ربما كان يرفض تصديقها. ليته ظل مع راعي الأغنام ولم يدخل طيبة ولا دخل ذلك القصر. ليته ظل يتجول بين المراعي الرحبة والوديان الخضراء. كم يشتاق الآن إلى تلك المراعي والوديان.

كم كان يحلم في شبابه بدخول طيبة فارسًا يمتطي جواده. لكن ها هي طيبة بعد أن رفعته إلى عنان السماء هبطت به إلى الحضيض. تحطمت حياته تمامًا لسبب لا يعلمه، ولذنب لم يقترفه. جلس على عرش طيبة ملكًا متوجًا، ثم نزلت اللعنة وحل البلاء، وانتشر الطاعون فعمت الفوضى وخرج الناس إلى الشوارع. ثم كانت تلك النبوءة التي نقلوها إليه والتي لم يكن قادرًا على تصديقها. هل نطقت باسمه حقًّا، أم كانت تلك مؤامرة دنيئة من كريون وبمساعدة رئيس مجلس الشيوخ من أجل اغتصاب العرش؟!

ثم جاء مرض جوكاستا فنزل عليه كالحزن المقيم. كان يعتمد عليها في كل شيء فصار الآن وحيدًا بلا عون ولا سند. لم يعرف ما ألمَّ بها منذ علمت بأمر تلك النبوءة فسقطت مغشيًّا عليها. من وقتها لم تنهض من فراشها ولم تفق قَطُّ. صمتت تمامًا عن الكلام ولم تكن ترد على أحد. حاول أوديب غير مرة أن يتحدث إليها، لكنها تركته وذهبت في غيبوبة بعيدة لم تكن تفيق منها

إلا نادرًا، وعندئذ كانت تصيح وتنوح: أغيثوني! لقد جاء البرابرة إلى طيبة. جاءوا يأخذونني. سيسحلونني في الطرقات كالسبايا والجواري. أغيثيني أيتها الآلهة! ثم كانت تغيب ثانية عن الوعي.

صار أوديب وحيدًا بعد فراق جوكاستا، وكأنه في سجن انفرادي. كان كثيرًا ما يتدبر ما مَر عليه من أحداث خلال حياته التي بدت له الآن بلا منطق وبلا معنى. تذكر معركته الباسلة ضد مينيلاوس ملك إسبرطة، والنصر الذي حققه لطيبة بعد سنوات من الخضوع لإسبرطة. أخذ يُحدِّث نفسه: كانت جيوشهم هي الأقوى، وهي الأحدث، لكننا انتصرنا عليهم لأننا كنا أصحاب الضربة الأولى التي شلت حركتهم. هاجمناهم بضراوة. عبرنا إلى مواقعهم في وضح النهار وحاصرناهم. تصدينا لهم بالسيوف والحراب والأسهم، وكسرنا دروعهم، وحين فقدنا أسلحتنا حاربناهم بأيدينا وأسناننا وأظافرنا. أحلنا السماء فوق رؤوسهم سوداء مظلمة، ومياه البحر صارت حمراء بلون الدم. لم تعرف طيبة طوال تاريخها معركة كهذه. معركتي هي التي رفعت رؤوس أبناء طيبة واستعادت لهم كرامتهم.

دخل عليه حاجب فقطع حبل تفكيره، فنهره أوديب: اغرب عن وجهي يا غلام. انصرف من هنا.

قال له إن رئيس جيوش طيبة حاكم البلاد ينتظره في قاعة الاستقبال.

قال أوديب: اخرج من هنا قلت لك. لا أريد أن أرى أحدًا.

وما إن خرج الحاجب حتى دخل عليه كريون مرتديًا بزته العسكرية.

تأمله أوديب وهو يؤدي له التحية العسكرية ثم قال: لم أكن أتصور حين وليتك على العرش أنك ستودعني هذا السجن.

قال كريون في اقتضاب: قد جئت أخبرك أنك غدًا ستترك الخيمة.

قال أوديب هازئًا: هل عدتم أخيرًا إلى رشدكم؟!

واصل كريون وكأنه لم يسمعه: ستأتيك في الصباح الطائرة الملكية لتنقلك من هنا.

قال أوديب: إلى أين بحق الآلهة؟

رد كريون: لقد أبلغتك الرسالة التي حمَّلتني إياها القيادة العليا. ليس عندي ما أضيفه.

فقال أوديب: أهكذا أصبحت معاملة الملوك في طيبة؟! من حقي أن أعرف مصيري، ومصير أسرتي.

رد كريون بسرعة: الأمر صادر لشخصك وليس لأسرتك. ستخرج من هنا وحدك.

ومن دون أن يضيف كلمة أخرى أدَّى التحية العسكرية، ثم استدار وخرج.

كانت الجماهير ما زالت تفترش الشوارع والميادين حين وصل التحقيق العام الذي أمر به كريون إلى نهايته، وعُرِفت نتيجته، فانتشر الخبر بين الناس مما زاد من غضبهم، فتعالت الهتافات في جميع أنحاء البلاد تطالب بإنزال العقاب بأوديب الذي تسبب بخطيئته الكبرى في غضب الآلهة وإحلال اللعنة بالبلاد.

كان تيريسياس العجوز الأعمى قد روى في التحقيق القصة كاملة فشرح كيف أن الطفل الذي وُلد من صلب لايوس وجوكاستا لم يُقتل كما كان أهل طيبة يتصورون، وأنه عُهد به لراعي أغنام غريب عن البلاد فاتخذه ولدًا يربيه بعيدًا عن طيبة، كما توصلت جهات التحقيق إلى من استطاعت من الجنود الذين كانوا يصاحبون لايوس يوم مقتله والذين كانوا قد هربوا خوفًا من دخول طيبة في ظل حكم الرجل الذي حاولوا قتله، فأدلوا بتفاصيل ما حدث وأكدوا أن أوديب هو الذي قتل لايوس، وتأكد لدى السلطات بما لا يدع مجالًا للشك أن أوديب هو ابن لايوس من صلبه هو وجوكاستا، وأنه هو الذي قتل لايوس يوم لاقاه مع جنده على أبواب طيبة.

وخرج كريون في محاولة لتهدئة الناس فأعلن على الملأ صدق النبوءة وقال إن أوديب مدان وأنه ثبت الآن أنه سبب البلاء بما اقترفه من إثم أثار غضب الآلهة، وأكد للجماهير الثائرة أن أوديب سيمضي بقية حياته في سجن مشدد تكفيرًا عما اقترفه من ذنب عظيم، وبين يوم وليلة تحولت غضبة الجماهير إلى فرحة عمت جميع أنحاء البلاد، ومَن كانوا يهتفون بالأمس بعبارات الغضب صاروا يرقصون اليوم ويهللون.

كان بترو وهيباتيا قد أمضيا الليلة في الساحة يحتفلان مع الناس بالقصاص الذي أتى أخيرًا والذي ينبئ بزوال البلاء وعودة طيبة إلى سابق عهدها. أم البلاد ذات المجد والقوة والجمال. ولم يفت بترو أن يصور تلك اللقطات التي تختلف تمامًا عمَّا صوره قبل ذلك. والتصقت عين بترو بعدسة الكاميرا فإذا به يفاجأ في عمق الكادر بليون مدير الاستوديو. أنزل الكاميرا بسرعة فرأى ليون يلوح له من بعيد رافعًا ذراعيه ومناديًا عليه أن ينتظره.

حين اجتاز ليون الكتل البشرية التي اكتظت بها الطرقات ووصل لاهثًا إلى حيث يقف بترو عانقه بحرارة وهو يقول: أين اختفيت يا بترو طوال اليومين الماضيين؟ حاولت الاتصال بك أكثر من مرة، لكن تلفونك كان مغلقًا، وتركت لك عدة رسائل بأن تتصل بي للأهمية.

فرد عليه بترو: لقد بتنا ليلتنا مع الجماهير في الشارع، نشاركهم فرحة الخلاص من اللعنة التي حلت بالبلاد، ولم ألتفت إلى التلفون.

قال الرجل: إذن فقد جئت أزيد فرحتك.

ثم أضاف بلا مقدمات: لقد قُبِل فيلمك في المهرجان الدولي للأفلام الوثائقية بأمستردام، وإن

كنت لا تعرف فإن هذا هو أكبر مهرجان للأفلام الوثائقية في العالم. لقد أرسلت لهم نسخة العمل فأثنوا عليها ثناء شديدًا، وبعثوا يطلبون النسخة النهائية للفيلم كي يدرجوها رسميًّا في برنامج المهرجان.

صرخت هيباتيا وراحت تقفز في الهواء حتى كادت تقع لولا أن لحقها بترو بذراعيه القويتين. ثم قال لليون: لكن الفيلم لم يكتمل بعد. إن ما صورته اليوم هو النهاية الفعلية للفيلم، ومن دون مشاهد الفرح التي تجسد انتصار الجماهير لن تكون الثورة قد نجحت وسيكون الفيلم ناقصًا.

قال مدير الاستوديو: إذن يكون موعدنا الليلة في الاستوديو. تحضر ومعك المشاهد التي تريد إضافتها إلى نهاية الفيلم حتى نتمكن من إرسال النسخة النهائية للمهرجان غدًا على الفور.

في تلك الليلة كان موعد بترو وهيباتيا مرة أخرى مع شجرتي الكافور الليموني اللتين كانتا تنتظرانهما على باب الاستوديو. عانقت هيباتيا إحداهما، ثم الثانية، وقالت لبترو: ألم أقل لك إنني متفائلة بهاتين الشجرتين؟

قال بترو: صدقتِ يا حبيبتي. وقَبَّلها قبلة طويلة قبل أن يدخلا الاستوديو.

في تلك الليلة توطدت علاقتهما بليون بشكل كبير، فإضافة المشاهد الختامية إلى الفيلم لم تستغرق الوقت الطويل الذي استغرقه عمل المونتاج في الزيارة السابقة، وبعد أن انتهيا منها أعد لهما ليون القهوة بنفسه، وجلسا يتجاذبان الحديث مع مدير الاستوديو الذي طوَّق عنقيهما بجميله الكبير، كانا يشعران بأن هناك شيئًا ما وراء هذا الرجل الصامت والذي منذ عرفاه لم يتبادل معهما إلا كلمات الإطراء على الفيلم.

أخذت هيباتيا أول رشفة من فنجانها وقالت لليون: أهنئك على هذه القهوة الفاخرة.

وقال بترو ضاحكًا: بالمناسبة، هيباتيا خبيرة دولية في القهوة، وشهادتها في هذا الأمر ذات شأن.

وسألته هيباتيا: كيف تعلمت صناعة القهوة بهذا الشكل؟

بدت في عينَي الرجل مسحة حزن خفيفة وهو يقول: من العيش وحدي، فأنا أعشق القهوة وليس لديَّ في البيت مَن يعدها لي، فأخذت أعدها لنفسي وعن طريق التجربة والخطأ توصلت إلى الطريقة المثلى لصناعة القهوة.

كان قلب ليون قد انفتح لهما بعد توالي زياراتهما، فقال لهما إنهما يذكرانه بسنوات شبابه حين كان ثائرًا مثلهما على حكم الملك الراحل لايوس.

قال بترو: قد كان مستبدًّا هو الآخر.

ابتسم ليون وهو يقول: إن طيبة دولة عريقة، لذا فلها تاريخ طويل مع الاستبداد.

ثم أضاف: كنت في مثل سنكما، وكنت مثلكما دائم الخروج في المظاهرات أنا وزوجتي. كانت عازفة بيانو. درسته منذ الصغر وكان البيانو أول شيء اشتريناه لبيتنا حين تزوجنا. كان غالي الثمن على الرغم من أننا اشتريناه مستعملًا. وقد ظللنا طوال الأشهر الأولى من زواجنا ليس لدينا خارج غرفة النوم إلا البيانو.

أخذ رشفة من فنجان القهوة وقال: لم يكن قد مضى على زواجنا إلا أسابيع قليلة حين نزلت معي لأول مرة إلى المظاهرات. كانت خائفة من هتافات زملائنا بصوت عالٍ، ومن وجود قوات حرس القصر حولنا في كل مكان. ظلت متعلقة بذراعي طوال الوقت من دون أن تهتف مع الزملاء ولم تفتح فمها بكلمة حتى عدنا إلى البيت. بعد ذلك تعودت على النزول معي.

ثم تغيرت نبرة صوته قليلًا: لكن حين اعتقلت انهارت تمامًا، وانهارت معها حياتي.

رفع فنجان القهوة ليأخذ رشفة أخرى، لكنه أنزله من دون أن يلمس شفتيه.

قال له بترو: كان السجن على وقتكما صعبًا.

فاكتفى بالقول: كان صعبًا.

سألته هيباتيا بشيء من التردد: كان هناك تعذيب؟

ردد وراءها: كان هناك تعذيب.

فلم تعلق. ومرت لحظة صمت لم يشأ بترو وهيباتيا أن يقطعاها احترامًا للحزن الذي بدا في عينَي الرجل، إلى أن أكمل: كانت لي خارج السجن زوجة مرهفة الحس لم يكن قد مضى على ارتباطي بها سنتان حين وجدت نفسها بلا زوج وكأنها أرملة، وكان لي طفل لم يكن قد أكمل العام الأول من عمره حين اختطفه الموت.

صاحت هيباتيا: يا إلهي!

وقال ليون لبترو: كم كنت أتمنى أن يكون لي ابن. لو عاش ابني لكان في مثل سنك يا بترو. لكنه ذهب. عندها أصيبت زوجتي بحالة نفسية عانتها كثيرًا، وبعد بضعة أشهر أرسلت لي في السجن تطلب الطلاق.

ومن دون أن يسأله أي منهما عن السبب قال: أتصور أنها كانت تريد أن تبتعد عن المتاعب التي كانت تعانيها ليل نهار. لم تتحمل تلك الحياة. كانت تريد أن تغير حياتها. التمست لها العذر بالطبع، لكن حياتي كانت قد فقدت معناها، وخرجت من السجن إنسانًا محطمًا.

أخذ الرشفة المتبقية في فنجانه وقال: لكني بعد فترة تمكنت من أن ألملم نفسي ووضعت همي كله في تأسيس هذا الاستوديو الذي أخذ وقتي بالكامل ومنحني حياة جديدة مختلفة لا مكان فيها لنشاطي السابق، وسرعان ما صار استوديو النجمة الزرقاء من أهم الاستوديوهات في طيبة،

واكتسب سمعة دولية فأصبحت الأفلام الأجنبية التي تُصوَّر في طيبة تستخدم هذا الاستوديو بالذات.

استمع بترو وهيباتيا إلى حديث ليون فازداد تعلقهما به وتقديرهما له.

قال ليون: إنني لم أشارك في المظاهرات منذ سنوات طويلة. أنتم وزملاؤكم الذين شجعتموني على النزول بعد أن كنت طَلَّقت السياسة.

ثم نظر إليهما وقال: لقد وجدت فيكما عزم الشباب الذي كسرته عندي قسوة التجربة، لكني وجدت فيكما أيضًا الهمة والإصرار على النجاح.

قال له بترو: يا له من تاريخ!

بدت في عينَي بترو نظرة فخر وإعزاز، وذرفت هيباتيا دمعة مسحتها بسرعة قبل أن يلحظها ليون.

وبعد أن انتهوا من شرب القهوة قام بترو وليون بتعليب الفيلم كي يُرسل إلى المهرجان في اليوم التالي، وقال ليون لبترو: أنا سعيد بالنهاية التي اخترتها للفيلم.

فرد بترو: إن فرحة الناس في الشارع بنزول أوديب عن العرش أعطتني النهاية التي كنت أبحث عنها فاكتمل الفيلم، لكن الثورة لن تكتمل إلا بإقامة الدولة الجديدة التي نحلم بها. دولة ديمقراطية حديثة لا تعتمد على الأساطير الخرافية، ولا تقوم على قدرية رغبات الآلهة.

قال ليون: هناك شق على الأقل من الثورة اكتمل اليوم.

فرد بترو: نعم لقد نجحنا في هدم القديم، لكن الشق الباقي هو الأهم لأنه شق البناء، وذلك سيتحقق بالعمل الشاق وليس بالنزول إلى الشارع.

ربت ليون على كتف بترو وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة رضا الأب حين يشعر بأن ابنه قد نضج.

ثم فوجئ بترو وهيباتيا بليون يسألهما بلا مقدمات: متى ستتزوجان؟

ضحك بترو واحمر وجه هيباتيا خجلًا.

فقال ليون: حفل زواجكما سيكون عندي هنا.

ثم أخذهما إلى قاعة كبيرة خلف غرفة المونتاج التي كانوا يعملون فيها. أضاء أنوارها المبهرة وهو يقول: لقد أُقيم الكثير من حفلات الزفاف في هذه القاعة، لكنها كانت للتصوير فقط. زفافكما سيكون أول زفاف حقيقي يُحتفل به فيها، لكن بشرط أن يكون الزفاف هذا الشهر، فابتداء من الشهر المقبل الاستوديو كله مشغول بفيلم درامي كبير. فهل توافقان؟

نظر بترو إلى هيباتيا وقال وكأنه يعرض عليها الزواج: هل توافقين؟

قالت والدمع في عينيها: أوافق.

فقام ليون وعانقهما عناقًا أبويًّا حارًّا، وانتقل الدمع من عينَي هيباتيا إلى عينَي الرجلين.

جلس أوديب وحيدًا في الطائرة وفي المقعد الخلفي جلس حارسه. كان فريق حراسة كامل قد اقتاده من الخيمة العسكرية إلى سلم الطائرة وكأنهم كانوا يخشون أن يهرب منهم. يا لهم من أغبياء لا يعرفون أقدار الناس. أوديب البطل الذي لا يخشى أحدًا يخادع هذه الحراسة البائسة التي فرضها كريون الخائن الجبان ويفر هاربًا؟! يا للسخرية!

قبل أن يغادر الخيمة سأل عن جوكاستا فأخبروه أنها فارقت الحياة. صرخ فيهم: كيف؟ كيف فارقت الحياة؟!

كان قد افتقدها منذ اليوم الذي سقطت فيه أمامه مغشيًّا عليها وحملها كريون إلى غرفتها. ظلت طريحة الفراش ولم تفق من إغماءتها إلا نادرًا. كان يحاول إفاقتها. كان يحدثها. لكنها كانت كلما أفاقت وأدركت ما حولها عادت ثانية إلى غيبوبتها وكأنها تهرب من الواقع الذي لم تعد قادرة على مواجهته. لكنها كانت على قيد الحياة، فكيف ماتت؟ وفي يوم مغادرة أوديب للخيمة دخلت عليها وصيفتها فوجدتها قد هربت أخيرًا من الحياة برمتها. كان وجهها في لون الملاءة البيضاء التي كانت نائمة عليها. لكن أوديب لم يصدق ذلك، ظل يصرخ في الحرس الواقفين أمامه كالأصنام: كيف ماتت؟ لم تكن تشكو من أي أمراض! أنتم الذين قتلتموها! يا لكم من مجرمين! وماذا فعلتم بابنتَي؟ هل قتلتموهما أيضًا؟ اذهبوا وأحضروا ابنتَي. هيا! لن أتركهما هنا وحدهما وسط المجرمين والقتلة.

خرج أحد أفراد الحرس وخر أوديب على أحد المقاعد غير قادر على الوقوف. وضع رأسه المثقل بالأحزان بين يديه وراح يحدث نفسه في صمت: كانت جوكاستا هي الزوجة الحبيبة والأم الحنون التي لملمت حياتي وأعطت لها معنى. كانت الشجرة الوارفة التي سكنت في ظلها. كل ما مسته يداها دبت فيه الحياة وسطع فيه النور. لماذا رحلت يا جوكاستا؟ أخذت معك كل ما كان جميلًا في الحياة، وتركتني للقبح الذي أصبح يحيط بي في كل مكان. تركتني للهم وللخيانة وللمؤامرة الدنيئة. يا للجرح الذي لن يندمل بعد اليوم. سيظل قلبي ينزف دمًا حتى ألقاك يا جوكاستا في العالم الأفضل.

عاد الحارس من الخارج ليخبر أوديب أن أنتيجونا وهيلينا منذ مرضت والدتهما قد انتقلتا للعيش في بيت خالهما كريون. فصعد الدم إلى وجه أوديب وهو يصيح في غضب: هل أخذ كريون كل شيء؟ أخذ مُلْكي، وأخذ زوجتي، وأخذ ابنتَي! أين عدل السماء؟ أيتها الآلهة! تباركون خطوات ذلك الخائن الجبان وتصبون لعناتكم عليَّ أنا؟ أنا أوديب بطل الأبطال. لقد تنازلت عن العرش، ولم أعد أرغب في شيء، فماذا يُراد بي بعد ذلك؟

حين اقتاده الحرس إلى الطائرة لم يستطع أوديب صعود السلم، فحملوه حملًا إلى داخل

الطائرة، ووضعوا معه حارسًا يصحبه في رحلته. لم يلتفت إليه أوديب طوال الرحلة التي بدت له دهرًا. كان ما زال لا يعلم وجهته، ولا يعلم مصيره. ظل ينظر من نافذة الطائرة إلى الأرض التي انبسطت أمامه. آلاف الأمتار كانت تفصل الآن بينه وبين هذه الأرض. أرض طيبة، أم البلاد. طيبة التاريخ والمجد والجمال. كانت لسنوات طويلة هي مُلْكه وعرشه، لكنها الآن بدت بعيدة، كما كانت قبل أن يدخلها محمولًا على الأعناق. هو لم يطلب المُلْك ولا الجاه، الأقدار هي التي ساقته إلى العرش. مات لايوس فآل إليه الحكم، والآن يقولون إنه هو الذي قتله. يا لهم من أوغاد.

كانت تضاريس المدينة تبدو جميلة من ذلك الارتفاع الشاهق. بدت الخضرة نضرة يانعة في مختلف تدرجاتها، تابع اللون الأخضر المتدرج من خضرة العشب الطفيف إلى لون الزيتون الداكن. ذلك هو اللون الأخضر الذي ارتبط بطيبة على مر تاريخها، كانت طيبة هي أرض الخضرة والنماء إلى أن أصابتها تلك اللعنة التي يدَّعون أنه هو الذي جلبها. لكن ها هو اللون الأخضر ما زال موجودًا، علامة على الحياة وعلى ديمومة تلك الأرض الطيبة التي من أجل ذلك سميت طيبة.

بدأ الهبوط التدريجي للطائرة فأخذ اللون الأخضر يتوارى في خجل ليحتل مكانه لون قاتم كئيب، هو لون الأسفلت المصنوع من القطران الأسود الذي أخذت الطائرة تهبط عليه ببطء. دقق أوديب النظر ليكتشف أن هذا هو مهبط الطائرات بالسجن الحربي. كان يعرف هذا السجن جيدًا. ففي هذا السجن حُبس أسرى إسبرطة الغاشمة حين أغارت على طيبة. والآن يُقتاد إلى ذات السجن؟ يا لها من مؤامرة خسيسة. صاح من دون أن يطلق صوتًا: ها قد أتممت مؤامرتك يا كريون الكلب! لكني لن أجعلك تنال مرادك.

استقرت الطائرة على الأرض، ونهض الحارس استعدادًا لمساعدة أوديب على النزول من الطائرة حسب الأوامر الصادرة إليه، وتسليمه للقوة الرابضة على أرض المطار برئاسة رتبة عسكرية رفيعة لم يخبروه بهويتها، لكن أوديب لم ينهض. فظن الحارس أنه ربما يحتاج إلى بعض الوقت ليستجمع قواه، فانتظر في مكانه بلا حراك، وطال الانتظار فتقدم الحارس إلى أوديب وقدم له التحية العسكرية قبل أن يقول له إنه ينتظر أن يسمح له بمعاونته على النزول من الطائرة.

نهره أوديب بشدة، فارتعد الحارس وعاد إلى صمته.

صرخ فيه أوديب أن يغرب عن وجهه، فارتعد ونزل بسرعة من الطائرة.

صعد تيريسياس سلم الطائرة بصعوبة، وكادت قدمه تنزلق على إحدى الدرجات فوبخ ماريوس: ماذا دهاك يا غلام؟ هل عُميت؟ لو كنت صعدت السلم من دونك لسلمت. انزل أنت واتركني أصعد وحدي. إذا احتجت لك فسأنادي عليك.

كان أوديب قد أمضى قرابة الساعة وحده في الطائرة بعد أن فشل الجنرال ديتر رئيس الأركان في إقناعه بالنزول. كان قلقًا لا يعرف ماذا سيحدث له، لكنه تمسك بعدم النزول. قال هي لعبة الصبر من يصمد أطول هو الذي سيفوز، لكن الوقت طال منذ نزل رئيس الأركان، فظل أوديب وحده يفكر فيما آلت إليه الأمور، وكيف انهار وتفتت كل شيء من حوله كقصور الرمال التي يبنيها الأطفال على الشاطئ فيجيء موج البحر ليساويها بالأرض كأن لم تكن.

فجأة وجد أوديب تيريسياس أمامه فتكدر مزاجه وانقلب وجهه: أنت ثانية أيها الدجال. أما من مصيبة تقع إلا وتكون في قلبها؟ ماذا أتى بك إلى هنا هذه المرة؟

قال تيريسياس: أرسلتني الأقدار لأضع نهاية الرواية.

فرد أوديب بسرعة: الرواية التي تشارك في صنعها لستُ طرفًا فيها.

فقال: بل أنت بطلها. أنت الذي جلبت اللعنة على البلاد بسبب جريمتك الشنعاء.

رد عليه أوديب: تلك الأكاذيب أنت الذي روجتها في جميع أنحاء البلاد. كنت تجوب الطرقات تؤلب الناس ضدي وتختلق الأكاذيب.

قال تيريسياس: بل أنا الذي نبهت بالكارثة، وبُصرت بطريق الخلاص.

ثم أضاف بصيغة آمرة: كفر عن ذنبك يا أوديب.

رد أوديب: لن أنهض من مقعدي.

فقال العجوز: إذن فلأجلس أنا.

ثم أخذ يتحسس مقاعد الطائرة حتى جلس على أحدها.

بعد قليل قال: كان بروميثيوس إلهًا قويًّا وعظيمًا، لكنه أغضب زيوس كبير الآلهة لأنه عصى أمره. فالبشر في بداية خلقهم لم يكونوا يعرفون النار ولا يستخدمونها، وأمره زيوس ألا يعطي سر النار للبشر، لكنه خالف أوامر زيوس الجبار وأعطاهم النار، فصاروا يستخدمون النار في الحروب، ومنها صنعوا أسلحة الدمار، وبها سيصنعون فناءهم وفناء العالم في يوم ما. لم يكن بروميثيوس يعرف ذلك، لكن زيوس كان يعرفه، فهو إله الآلهة الذي يعرف كل شيء، وقد غضب من بروميثيوس غضبًا شديدًا وأراد أن يعاقبه، فقيَّده إلى الجبل وجعل الصقر العملاق

يهبط عليه يوميًّا من السماء ليتغذى على كبده. ولما كان بروميثيوس إلهًا فقد كانت تنمو له كل يوم كبد جديدة بدلًا من تلك التي أكلها الصقر، فكان الصقر يهبط عليه في اليوم التالي ليأكل كبده الجديدة، وستظل هكذا الحال إلى أبد الآبدين.

قال أوديب: ها قد عدت إلى هذيانك أيها المخرف الأعمى.

فرد تيريسياس: اتعظ من العقاب يا أوديب وامتثل للحقيقة. اقبل بمصيرك، حتى ترضى عنا الآلهة، وترفع عنا البلاء، وننتهي من هذه الرواية.

قال أوديب: سأختار نهاية روايتي بنفسي.

فابتسم تيريسياس: الآلهة هي التي تصنع لنا رواياتنا؛ بداياتها ونهاياتها، ونحن لا نملك حيالها إلا الخضوع، فدعك من عنادك هذا يا أوديب. إنه لن يوصلك إلى شيء.

صمت أوديب طويلًا، ثم قال وكأنه يكلم نفسه: إن أفعالنا كلها من تدبير الآلهة. يا لها من مأساة. بل هي ملهاة. نحن على ما يبدو لعب في أيديهم، يلهون بنا كما يلهو الأطفال بلعبهم.

ومرت لحظة صمت أخرى قطعها تيريسياس بقوله: عليك يا أوديب التكفير عن جريمتك الشنعاء. عليك أن تقبل العقاب.

فقال أوديب: هل المطلوب مني التكفير عما قدرته الأقدار؟ هل عليَّ أن أقبل عقابًا على ما دبرته الآلهة؟

قال تيريسياس بحزم: نعم فروايتك لن تنتهي إلا بدخولك السجن.

فرد أوديب على الفور: لن أدخل السجن.

ثم أشاح بوجهه عن تيريسياس وعاد ينظر من النافذة، فطالعه الأسفلت الأسود مرة أخرى وهو يلتمع تحت أشعة الشمس كالسكاكين المشهرة والتي تنتظره على أرض المطار.

قال له تيريسياس: إن تدبير الآلهة محكم، ولا فكاك منه يا أوديب. إن قدرت لك الآلهة أن تدخل السجن فلن يكون لك مكان آخر غيره.

تجاهل أوديب مقولته ولم يرد.

نهض تيريسياس من مقعده واتجه إلى أوديب وهو يقول: قل لي إذن إن لم تدخل السجن فإلى أين ستذهب؟ الآلهة لم تترك لك ملجأ آخر. لم يعد لديك بيت، ولم تعد لك أسرة، وأبواك ماتا، فهل ستهيم على وجهك في البلاد كالمشردين؟ إن فعلت فسيكون عقابك أشد وأقسى. الجماهير ستقطعك إربًا. السجن هو ملجأك الوحيد يا أوديب.

ظل أوديب صامتًا يتدبر ما قاله له العجوز. مضت عليه اللحظات بطيئة قلقة. شعر بعجز لم

يشعر به في حياته. يا له من عجوز ماكر ذلك الدجال الأعمى. أخذ أوديب يحادث نفسه من دون أن ينبس ببنت شفة: لا، لا يجب أن أنصاع لكلامه المخادع. لكن أين المفر؟ قد كنت حتى وقت قريب أنا الآمر الناهي. كنت آمر فأُطاع. جعلوني أظن أنني أشكل الأحداث من حولي كيفما أشاء. كم كنت ساذجًا!

قال تيريسياس: عليك الانصياع للقدر يا أوديب.

سكت أوديب قليلًا ثم تساءل بصوت لا يكاد يُسمع: أما من مفر؟

رد العجوز: الأحداث التي تُكتب في السماء وتقوم الجماهير بتجسيدها على الأرض تدخل كتاب التاريخ حسبما وقعت، وحسبما تنبأ بها أبولو إله التنبؤ. ما من تعديل يا أوديب ولا تبديل.

قال أوديب: كم عرفت في حياتي من صعاب وأخطار، واجهتها كلها بشجاعة، لكن...

قاطعه تيريسياس: الشجاعة الحقة تكمن في الاعتراف بالحقيقة والانصياع للقدر، وليس في الهروب منه.

شعر أوديب بأن الخناق قد ضاق حوله، ولأول مرة بدت معاركه الحربية التي واجه فيها الموت أكثر من مرة لا وزن لها أمام ما يواجهه الآن. أمام ما قدرته الآلهة ولم تترك له حياله خيارًا. أمام القدر الذي كان عليه أن يستسلم له كما لم يستسلم لأحد من قبل.

عاد إلى صمته من جديد، وساد السكون داخل الطائرة. ما من صوت، وما من حركة.

بعد لحظات نهض أوديب بصعوبة من مقعده بلا مساعدة من أحد. تحامل على نفسه واتجه ببطء إلى باب الطائرة. نزل السلم بخطى ثقيلة لكنها ثابتة.

بعد دقائق كان أوديب داخل السجن. وأرسل رئيس الأركان التمام للقيادة العامة. أخبرهم أن الأوامر نُفذت. وأنه أغلق بنفسه على أوديب باب الزنزانة.

وبعد بضعة أيام فارق أوديب الحياة.

المؤلف

محمد سلماوي أديب وكاتب صحفي مصري، صدر له أكثر من ثلاثين كتابًا ما بين المسرحيات والمجموعات القصصية والروايات والسيرة الذاتية، بالإضافة إلى مؤلفات في السياسة والصحافة. شغل عدة مواقع قيادية في مختلف المجالات، منها مدير تحرير «الأهرام ويكلي» التي تصدر بالإنجليزية، ورئيس تحرير «الأهرام إبدو» التي تصدر بالفرنسية، ووكيل وزارة الثقافة للعلاقات الخارجية، ورئيس مجلس إدارة مؤسسة «المصري اليوم». كما انتخب رئيسًا لاتحاد كُتَّاب مصر، ثم أمينًا عامًّا للاتحاد العام للأدباء والكُتَّاب العرب، ثم أمينًا عامًّا لاتحاد كُتَّاب أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. حصل على العديد من الجوائز عن أعماله الإبداعية، وكرَّمته مصر وعدد من الدول الأجنبية لمساهماته الثقافية، وحصل عام ٢٠٢١ على جائزة النيل في مجال الآداب، وهي أرفع جائزة تمنحها مصر للمبدعين.